لندن ٤/ ١٠/ ٦٨

البيتلـــز : عزل الشبيبـــة عن التيارات الثـــوريةالحقيقية . . .

ثورة الهيبيز . . . تلك الثـورة العميقـة الجـذور ، الساذجـة الاسـاليب ، نجـح (البيتلز) نجاحهم الساحق لانهم كانوا التعبير الصادق عنها . . .

وباعوا حتى لحظة كتابة هذا التحقيق ٢١٠ مليارات اسطوانة لانهم انشدوا اغنية صغـار القصر العتيق الثائـرين على كل شيء . . . اغنية الثـورة والجنـون المنطلقـة من حناجرهم بينما هم يعبثون بمعتقات القصر من نوافذ صدئة واثاث عفن ورياش وستائـر ونياشين . . .

انشودة الجنون تلك لقيت صدى لدى ابناء الجيل في اكثر من قطر اذ التقت الردة البريطانية ضد اطارات البلاط المتحجرة التي تجرد الانسان من انسانيته ، مع الردة العالمية ضد آلية العصر التي تجرد الانسان من انسانيته ايضا ، وتحوله الى كائن ممزق يكافح بيأس ليسترد ذاته داخل غواصة صفراء تبحر به عبر الزمان والمكان والرؤ ى . . .

في احدى الحكايات يموت كل من على الغواصة وتنتهي الحياة ، وذلك بعد موت الارانب البيض بساعة واحدة (كانت الغواصات تحمل مع بحارتها ارانب بيض ، وبعد ان تنفق كلها ، يكون ذلك دليلا على ان الجميع سيموتون بعد ساعة واحـدة ، اي في الساعة الخامسة والعشرين ، فالى اي حد دنت تلك الساعة من عالمنا ؟)

وهل ماتت الارانب البيض للانسانية كلها ؟ وما تبقى من عمر الفرح والمحبة وقيم العالم القديم كلها لن يبقى من عمره اكثر من ساعة ؟

وما هي وسيلة البيتلز للعودة بركاب الغواصة الصفراء من بحار هستيريا التخدير والغيبوبة وقاع الدمار الى الشمس والدنيا المعافاة من جديد ؟ . .

وهل هم قادرون على ذلك ؟ انها على اية حال محاولة تستحق الدراسة . ولا بد من القاء نظرة سريعة على حياة البيتلز الاربعة .

أطفال بر وليتاريا ،وتعساء .

كلهم من مدينة ليفربول ، كلهم ينتمي الى طبقة (بروليتاريا) . خلف كل منهم

Akhawia.net

مأساة عائلية ما ، أسرة مزقها الطلاق او الهجر او الخيانة . . . كل منهم طموح ، ومجنون بالموسيقى . . . هكذا بدأوا ايام مراهقتهم . . .

وهم (حسب ترتيب انضمامهم للفرقة) :

١ ـ جون لينون (٢٧ سنة) ، عازف جيتار وشاعر .

٢ ـ بول ماكارثي (٢٦ سنة) ، عازف جيتار ومطرب ، ورفيق جون لينون في المدرسة . . عزفا معا للمرة الاولى في حفلة مدرسية عام ١٩٥٦ .

٣ ـ جورج هاريسون (٢٥ سنة) ، وصديق « المهاريشي ماهيش يوجي » وهو صلة الوصل بينه وبين بقية رفاقه البيتلز .

٤ ـ رينغو ستار (٢٨ سنة) ، ضارب طبل . مطرب . وقد إنضم الى البيتلز عام ١٩٦٢ بعد ان (هجرهم) رابعهم واسمه (بايت بست) وهو اليوم يعيش بهدوء في ليفربول متابعا عمله كخباز (من يدري ، ربما كان على فقره اسعد حالا منهم) . .

على اية حال اسماؤهم لا تهم الا لانها تسهل سرد الاحداث ومناقشتها ، كان من الممكن ان يكون بول اي شاب بريطاني مرهف طموح وذكي وجيد الصحة ، وراغب في التعبير عن نفسه كأن يكون مثلا شابا اسمه ستو (ستيوارت سوتكليف) ، (ستو كان من اعضاء الفرقة عام ١٩٦١ حينما كان اسمها فرقة « كلاب القمر » ومات في المانيا بنزيف في الدماغ) . . . ولكن ، الى اي حد هذا الكلام صحيح ؟ وهل لنجاح البيتلز علاقة بعوامل كثيرة آخرها موهبتهم الفردية ؟ هل الفرق بينهم وبين سواهم هو مدير اعمالهم الذكي الراحل بريان ابشتاين ، وصرعاتهم المتجددة المتجاوبة مع البوصلة النفسية لجيل الستينات ، ام ماذا ؟ . .

اترك لملاحق صحف الـ (اوبزرفر) والـ (صنداي تايمز) (حق) النزاع في كشف مجاهل ما خفي من حياة البيتلز واترك الصحف الاخرى تتدخل في كر وفر وهجوم ودفاع ، واكتفي بأن الفت النظر الى بعض بديهيات البيتلز :

١ ـ الذين وصلوا هم الذين استطاعوا الثبات حتى النهاية وطيلة عشر سنوات من الكفاح (بايت بست) مثلا هرب من اول الطريق ، و (ستوسوتكليف) كان صحيا اضعف من ان يتابع .

٢ ـ الموهوب ليس من طينة اخرى غير طينة البشر ، والحياة الخاصة ليست دليلا ـ مع الموهبة او ضدها . . وبودلير ورامبو لم يكونا من القديسين . . .

٣ ـ قدرة الانسان على ان يكون تعبيرا عن عصره منفعلا به هي بحد ذاتها

Akhawia.net

موهبة . . . قدرته على ان يكون فاعلا بعصره وذا موقف بالاضافة الى فهمه له وتعبيره عنه وبالاضافة الى تقييمه لهذا كله على ضوء القيم الانسانية الاساسية (ان لم نقل الخالدة) ، تلك القدرة هي الابداع .

ومحاولة التقييم للبيتلز ولاي مبدع تكون اقرب الى الحقيقة حينما تأخذ هذا العامل بعين الاعتبار وقبل اي عامل آخر . .

على اية حال ، سأشير بسرعة الى عوامل اخرى تشغل بال الصحافة الغربية هذه الايام (ربما كان اقترابهم الشديد من البيتلز يشوش لديهم سلامة الرؤيا) . .

واول هذه الاعتبارات في دراستهم لظاهرة (بيتلمانيا) هي ان ثروة البيتلز قد بلغت اليوم ما يفوق مليون مليون باوند وانهم امبراطورية من الثراء والقوة . . . وان بين كبار الصحفيين من يؤلف الكتب عنهم صدر مؤخرا لـ (هانتر دايفيس) كتابه (البيتلز ٣٥٧ صفحة) ـ بايوجرافي مرخصة من قبلهم ـ كما صدر لـ (يوليوس فاست) كتابه (القصة الحقيقية للبيتلز) ويقول فاست انها (الحقيقية) لانها ليست مرخصة من قبلهم ولم تكن لديه الالتزامات التي تقيده امامهم عن قول الحقيقة (عن النيوزويك ـ عدد ٣٠ سبتمبر ١٩٦٨) . . .

وانهم قادرون على منح الشهرة لمن يشاؤون . . « ماري هوبكنز » مثلا ، كان يكفي ان (يزكيها) ويكتب لها اغنيتها الاولى (بول مكارثي) كي تشتهر وتنجح . . .

واوكو اونو ، الفنانة اليابانية ، كان اعجاب جون لينون وعلاقته بها كافيا لجلب الشهرة العالمية اليها ، واحتلالها لخمس من صفحات اللايف (عدد ١٦ سبتمبر) ، وبعد ان كانت حبة رز اخرى مجهولة بين الملايين امثالها ، اطلق عليها لقب (مدام باترفلاي) وصار هنالك من يهتم بقراءة اشعارها ! . . .

اشياء اخرى كثيرة ابرزتها الصحافة الغربية وحاولت تقييم (موهبة) البيتلز على ضوئها منها العلاقة (الغريبة) بين جورج هاريسون والمهاريشي ، ومنها (ثرثرة) زوجات البيتلز (وهن في نظري عادة « آخر من يعلم » عن موهبة الزوج) .

وهكذا صارت مورين ستاركي وباثي بويد زوجتا رينغو وجورج هاريسون مشهورتين ، وصار طلب (سينتيا) الطلاق من زوجها جون لينون لعلاقته باوكو اونو كافيا لتصدر الصحف طبعة اضافية ، اما العازب الوحيد بينهم بول مكارثي فهو اكثرهم وفاء لانثاه (!) وهي عارضة الازياء جين آشر . . .

وفي رأيي ان هذا كله هام بقدر ما يؤثر في نتاجهم فقط . علاقتهم مع المهاريشي

Akhawia.net

هامة بقدر ما كان لها من اثر (سلبيا او ايجابيا) على عطائهم الفني ، وعلى امتصاصهم لروح العصر وانفعالهم وفعلهم بها . . (علاقة الرحبانيين مع سعيد عقل مثلا) .

١ ـ الطبل ،ويه يه يه

بدأوا بالاحتجاج الصاخب . كانت اغانيهم الاولى زعيقا متواصلا (زعيق صغار يريدون تذكير الكبار بانهم هناك) . . وضربات طبل بدائي (بدائي ثائر على تعقيدات الحضارة) . . وكانت رقصاتهم دبكا متواصلا على الارض . . رقص قبيلة تحتفل بدفن تراث من الملاعق والشوك ، وتشهر خناجرها استعداداً لافتراس كل من يقول لا . كل من يرتدي قفازاته في الاكل او الحب . . . كل من يذكر قبيلة الاطفال الغاضبين الحفاة بالنظام والالتزام كالنياشين (الحرب) والاحذية (الانضباط) . . .

وكان ذلك الصخبَ الماجن الارعن فوق طاقتنا على الاحتمال كشرقيين ألفنا الناي والقانون والمزمار ، والحزن العتيق الذي يترقرق بصمت وسرية كالينابيع الخفية في ليل الغابات المنغلقة على نفسها . . وكانت ردة الفعل الاولى لدينا الرفض بحذر ، تماما كما نرفض عادة الاشياء التي نحس سلفا خطر الوقوع فيها ! . في تلك المرحلة ايضا ارعبتنا (تقاليدهم) الجديدة للطرب اكثر مما اخافتنا موسيقاهم . . فقد كان جيلهم الجديد يعبر عن استحسانه للموسيقى بتمزيق الثياب وشد الشعر والزعيق والبكاء وتحطيم المقاعد . . . (رغم ان كبارنا وصغارنا يمارسون الشيء ذاته في لحظات طربهم . كلنا ، ودون ان نتحرك عن مقاعدنا ، نمارس في الداخل ، تمزقاً أفيونياً صامتاً لاننا شعب شرقي باطني ، وكبتنا صار من بعض جلدنا . . . وبراكيننا داخلية تنبع وتصب داخلنا . . . متى يجيء الزلزال ؟) . . .

وفي هذه المرحلة شاهدنا البيتلز مجموعة من المجانين الذين يعبرون عن بؤس اهل الغواصة الصفراء في فيلمهم الاول « ليلة يوم شاق » . . في الفيلم غضب (بروليتاري) ممزوج بمرارة لا حد لها ، لانه لا عزاء . . .

« لقد كانت ليلة يوم شاق عملت خلاله كالكلب . . . »

لماذا ؟

يقول :

« لاحضر النقود

« وابتاع لك اشياء واشياء »

وهو هنا لا يخاطب حبيبة ، تبتز نقوده ، المأساة اعمق . انه يخاطب مدينة بأكملها ،

Akhawia.net

حضارة باكملها . . اهل غواصة صفراء تتجه الى اعتم قيعان الضياع . . .

٢ ـ مرحلة الاستغاثة :

هذه المرحلة تعد في نظري بين ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ . . . انها مرحلة «Help!» كما سموا فيلمهم (النجدة !) .

لم يهدأ صخب «يه يه» والطبل في هذه المرحلة ، ولا زعيق الاحتجاج ، لكن شيئا جديدا تسرب الى النغم . . . انه الجوع الى يقين ، انه حاسة البحث الممزوجة بالاستغاثة . . انه الوعي بأن الساعة الخامسة والعشرين قد دنت ، والارانب البيض كلها نفقت . . . والاحتجاج وحده لم يعد يجدي . . . ولذا تسلل الى الحانهم وتر من الشحوب بين ضربات الاوتار الوحشية . . . وظل من شحوب أنين محتضر خلف ايقاع الطبل العدائي . . . وكثير من الجوع للحب . . . كثير من انغام الحب التي ترسم صورته الرومانتيكية ايام كان .

أيا كان السبب في هذا التطور ، اهو تأثير بول ماكارثي (المولع بالموسيقى الكلاسيكية والذي حاول ادخال جلالها الى الاغنية الشعبية) او انه تأثير مدير أعمالهم الذكي جدا (يقال انه العبقري الذي صنعهم . . يقال) بريان ابشتاين ، او انها حتمية تطورهم بحكم موهبتهم . . . ايا كان السبب .

عبرت الحانهم عن حزن انساني خفي متكبر مختبىء خلف زعيق اطفال الغواصة الصفراء وعويل احتجاجهم وتهديدهم . .

وبدأ العداء (العداء ضد الكبار ـ ضد المجتمع ومسلماته وتقاليده ـ ضد زحف الحضارة المادية) ، يعبر عن نفسه بمظاهر اقل ضراوة ، (كأن الصرخة صارت تعويضا عن ضربة السكين ما دام الهدف اصلا هو التنفيس) . والجدير بالملاحظة ان ظهور البيتلز في المرحلة الاولى بالجاكيتات الجلد والشعر (المنبوش) وغناءهم المتميز بالعنف كان مرافقا في تلك الفترة لظهور فئة من (شبان العنف) تحدثت الصحف عن افرادها (بجاكيتاتهم) الجلدية ودراجاتهم النارية وسكاكينهم وتمزيقهم لثياب المارة وشجارهم مع المواطنين العاديين بلا سبب . . . .

هذا المظهر تبدل في المرحلة الثانية ، وبدأ البيتلز يقتربون من شكلهم (الهيبي) الذي صار يميزهم . . فالحزن والشاعرية وصرختهم بلسان اهل الغواصة الصفراء (النجدة !) انعكس على مظهرهم ، وابتعدوا بالتالي عن صورة (المقاتل) او (الولد الجيمسبوندي) وبدأوا يقتربون من صورة (همشرية) (سواحة) فيها الكثير من التعب

Akhawia.net

والدروشة . . والتأمل . . . والاقتراب من المرحلة الهيبية .

وقد جسدوها في فيلمهم الاخير « الغواصة الصفراء » وفي أغانيه الـ ١٢ . . . وتبلور مظهرهم المميز : . . الشعر الطويل . . الورود . . الجاكيت الماوتسي تونغي او القفطان . . العودة الى الخواتم . . . (رينغو : سمي كذلك لانه اول من خرج ببدعة ارتداء خاتم في كل اصبع . . وقد سئل مرة لماذا يرتديها في اصابعه كلها فقال : لاني لا استطيع ارتداءها في رقبتي !) . .

وقد لعب (البيتلز) هذه المرة دوراً في بلورة الشكل الخارجي لموجة (الهيبي) ولم يكونوا مجرد انعكاس لها وانما اثروا في مجراها اذ انهم بشهرتهم وبما لهم من شعبية كانوا المثل الاعلى لجماهير المراهقين ، اي زي واية صرعة ، مثلا يقتدى بلا نقاش . . .

ومما لا شك فيه ان صداقة المهاريشي مع البيتلز كانت وسيلة مدهشة لترويج الالبسة والموسيقى والعقود الهندية وبقية ادوات (التأمل الروحي) لدى المستهلك الغربي المراهق . . . وهكذا تم للمرة الاولى تحويل اليوغا الهندية والفلسفات الروحية الشرقية (!) الى صناعة سياحية رائجة . .

وهكذا تمت ولادة صرعة الهيبي . . فالهيبي هو نفسه ذلك المراهق الرافض وان كان قد استبدل هذه المرة القفازات الحديدية الفتاكة في قبضة يده ، بالخواتم ، والجاكيت الجلدي بالقفطان الهندي ، وصرخات المعركة ، باغاني الحب والزهور ، والدراجة النارية بالجيتار ، ورائحة البارود بسحب البخور والتأمل الروحي . والازقة الخلفية بالحدائق العامة والشوارع ورابعة النهار !

اما وقد استتب الامر ـ نهائيا ـ (للهيبي) على صعيد المظهر من شعر طويل وتوابعه ، ومن شذوذ في السلوك الاجتماعي وتوابعه (مخدرات ، بخور . .) ، يحاول البيتلز في الغواصة الصفراء اسباغ البعد الثالث على شخصية الهيبي . . .

ويحاولون تفسير المظهر والسلوك الهيبي على ضوء فلسفة وجودية شرقية غربية ، بل ويحاولون ابرازها في صورة نظرة الى الوجود تحمل درب الخلاص . بعيدا عن صخب الشاشة وسحر الوانها والعبقرية الالكترونية في التصوير وبعيدا عن ثياب الهيبيز بالوانها الرائعة واغاني البيتلز المدهشة الاخراج . . ـ خارج هذا التجديد في الهيكل ـ يحس المتفرج بالخيبة اذ يجد ان شبكته الفكرية لم تعد بجديد ، بأي جديد . . . « كفلسفة » لم يأت البيتلز بجديد على الصعيد الانساني الابداعي ـ كما يدعون ـ . . تقول الاعلانات ان قصة الفيلم مبنية على قصة من تأليف (لي مينوف) وعلى اغنية بيتلية تأليف (جون

Akhawia.net

لينون) و (بول مكارثي) : « الحب هو كل ما انت بحاجة اليه » . .

ولكن قصة الفيلم كانت اصلا حكاية « اسطورة اورفيوس » الذي ذهب الى الجحيم وانقذ زوجته بغناء العذب وموسيقاه المذهلة التي استطاع بها ان يجفف جداول النار في الجحيم ويعود بزوجته . . . وهي ايضا من بعض اسطورة ديونيسيوس . . . الجديد الوحيد الذي جاء به الفيلم في هذا المجال هو تصويره للفكرة الرئيسية بطريقة جميلة عصرية يدين البيتلز بها للتقدم التكنولوجي الفني . . . اذ صور لنا الفيلم الذبذبات الصوتية للموسيقى جسورا من نور تمتد بين البشر وتجعل الحب ممكنا والتفاهم حقيقة انسانية .

اما فكرة (الحب هو كل ما انت بحاجة اليه) وهو وحده الذي يمكن ان يعيد للعالم الآلي انسانيته ، هذه الفكرة ليست جديدة ولم يستوردها البيتلز من الشرق ولم يخترعها الهيبيون . . انها فلسفة اكثر من اديب وشاعر كلاسيكي قديم غربي وشرقي . كولريدج مثلا في قصيدته (الملاح العتيق) .

ـ رمز للانسان ـ يقتل الملاح العتيق طائراً حياً اسمه (الباتروس) ويحكم من قبل الآلهة بأن يظل معلقا في رقبته طول عمره (الخطيئة) وبعد هذه الجريمة يموت رفاقه على السفينة وتموت الاسماك والاصوات والبحر والالوان وكل شيء (اللعنة) ثم ينال الغفران لقاء لحظة (حب) واحدة صادقة يحس بها تجاه حيوان بحري صغير (حي) . . والباتروس في القصيدة رمز مسيحي ، والحب فيها مطروح بمعناه الفلسفي الشامل الذي طالما طرحه كبار الادباء والموسيقيين الخالدين . . وهكذا فالبيتلز بصفتهم ناطقين باسم الهيبيز اذن لا يبشرون بنظرة جديدة الى الحب والوجود ، وانما يصيغون قصيدة مراهقة جيدة عصرية الصرعات غريبة الكورس في مدح الحب . . .

بين ثوار المراهقة وثوار الفكر

البيتلز ، يقتربون من الثلاثين ، ولانه لم يعد بوسعهم ان يكونوا قادة (مراهقين) نجدهم يحاولون في فيلمهم هذا تحويل حركة الهيبيز من ثورة مراهقين الى ثورة انسانية .

انهم يحاولون توسيع أفق حركتهم وتعميق مدلولها بحيث تتحرر (الهيبية) من ان تكون صرعة مراهقين ، الى ان تكون المظهر المعاصر لثورة الانسان المعاصر . . . لقد حاولوا بهذا الفيلم ان يتحولوا من (شركة ثوار مراهقي بريطانيا ليمتد) الى (شركة ثوار في اي مكان وزمان) لهذا استعملوا رمز الاسطورة ـ وثوار اي زمان ومكان ترادف صيغة : (ابداع ـ عباقرة) . .

Akhawia.net

لكن البيتلز ، رغم وعيهم للتحدي الذي كان عليهم تجاوزه فشلوا في جعل (الهيبيز) قضية انسانية .

(الهيبيز) يظلون في نظر المشاهد بعد ان يشاهد الفيلم كما كانوا . . . وهستيرياهم لا تحمل اليه وهج ثورة الانسان المكافح من اجل انسانيته في كل زمان وفي كل قطر . وبالرغم من المحاولات كلها لتحويل (الهيبيز) الى رموز للصراع الانساني وكفاح الانسان من اجل الفرح فاننا نظل نراهم في الفيلم مجرد نماذج بشرية واراجوزات عصرية الالبسة والالوان ، محرومة من جلال العمق الانساني للشخصية الاسطورية ومحرومة من الامتداد الزمني للملحمة المنبثقة عن الاساطير . . . ونقرر : اذا كان البيتلز في هذا الفيلم يرسمون لنا كاريكاتور الثورة المثالية ، فاننا نظل نحس ان الهيبيز دخلاء عليها . .

وهكذا يفشل البيتلز في تحويل (الهيبي) الى ثائر ، ويفشلون في دمج ثورته المسطحة الملونة وجعلها جزءا من الثورات الانسانية على مر التاريخ .

ويظل الهيبي في نظرنا حتى بعد الفيلم ظلا باهتا مزيفاً للشخصيات الانسانية التي كافحت بحب من اجل اعادة الحب الى العالم . . . وهذا معناه ببساطة ان الاعوام القادمة ستشهد موت اسطورتهم : البيتلز والهيبيز معا . . .

الهيبي يذوب في الاطارات القائمة

وهكذا ، ورغم جهود البيتلز وكوكتيلهم الفلسفي الفكري الذي يفتح النفس على التأمل الروحي الافيوني ، تظل (الهيبيز) ظاهرة مقترنة بالسن . . .

وحينما يكبر الهيبي ، يندمج من جديد ضمن الاطارات القائمة ويذوب فيها .

وتظل موجة الهيبية اقرب الى كوكتيل فكري (نهشة من كل فلسفة فكرة من هنا ، ورأي من هناك) منها الى فلسفة متماسكة واضحة المعالم كما يحاول البيتلز تصويرها . . . مجرد صرعة قد تعيش اكثر من سواها لمجرد انها تعبر عن ارادة التجديد . لكنها ستنتهي ! وتظل هذه الموجة قاصرة عن استيعاب حاجة الفرد البريطاني الى التبديل ، وتظل قاصرة عن استيعاب حاجة الفرد المعاصر الى ما يواجه به عصر الآلة واللاعدالة . . . وتظل لا تخرج عن كونها صرخة احتجاج الافراد على الذوبان في الاطارات العتيقة . . .

بل ان ظاهرة الهيبيز قد تكون ضارة لانها تمتص فعاليات الشبان وارادة التغيير لديهم وتتولى تصريفها عبر قنوات غير عملية وغير منتجة وتعزلها عن التيارات الثورية الحقيقية للعالم، وتتولى تخدير الجيل الطالع بصرعاتها حين تجرف لديه ارادة التغيير وهدفه ريثما يكبر ويفقد الحماس فيعود لينسكب من جديد ضمن الاطارات العتيقة . . وتظل كل

Akhawia.net

مزاياه هي المزايا التقليدية الانكليزية .

وهذا هو على الاقل ما بدأ يحدث للبيتلز . .

مؤسسات رأسمالية للبيتلز . .

يقول جون لينون أحد البيتلز « نحن مقاتلون ضد المؤسسات التقليدية ، وضد الجهل ، وضد القسوة من اي نوع » .

وهذا كلام جميل وفضفاض . . فالبيتلز اليوم قد حملوا حصيلة (قتالهم) إذ عادوا ليضيفوا الى المؤسسات القائمة (التي كانوا قد ثاروا ضدها) مؤسسة جديدة تفوق كل ما سبقها من مؤسسات ثراء ورأسمالية : وهي مؤسسة « تفاح » . . اسمها غريب طبعا . . . ولكنه ليس اغرب ما فيها . .

اسم الشركة تفاح . . والمكاتب جميلة وغامضة كالبيوت السرية . . والسكرتيرات فاتنات وشبه عاريات .

وخلف هذا القناع (التأملي الاستغراقي) هنالك ملايين الملايين من الجنيهات ، والادمغة المفكرة ، ومحاولة مضاعفتها على كل صعيد . . .

وعلى جدران مكاتب شركة (ابل - تفاح) في بيكرستريت الصق البيتلز منشوراتهم (بوسترز) الروحية التي تدعو لنبذ المادة والعودة الى عالم الروح ، وداخل المكاتب تخطط الرؤوس لامبراطورية جديدة للمال وركيزة اخرى تقليدية تساند الركائز الاخرى القائمة . . . ولا شك في ان البيتلز احسوا ببعض الحرج لتحولهم الى رجال اعمال ، ولذا حاولوا تغطية خط الرجعة الفكري لاعمالهم بتصريح لبول قال فيه (هذه المؤسسة المقصود منها منح الشبان الموهوبين الفرصة التي حرمنا منها في شبابنا . . . . اكتبوا الينا عن افكاركم الجديدة . . وتعالوا !) . . .

وقال لي صديق انكليزي يعزف الجيتار : ذهبت اليهم ورفضت الابواب الالكترونية ان تسمح لي بالدخول !! . .

وربما كان اقصى طموحهم هو المشهد الذي سنراهم فيه بعد اعوام : اربعة لوردات محنطين في رولزرايس ، في طريقهم من ملعب الجولف الى تناول شاي بعد الظهر !!! . وقد اعتزلوا الغناء !

Akhawia.net

لندن ١١/ ١٠/ ٦٨

المواطن العادي هو . . الملك !

ليس بالـ (يه يه يه) وحدها يعبر الشعب البريطاني عن نقمته على المؤسسات المحنطة للقصر الامبراطوري العتيق ، وليست ظاهرة (الهيبيز) التعبير الوحيد عن ارادة التبديل ، لكنها التعبير الاكثر لفتا للانظار ، رغم المشاق التي يتطلبها حل رموزها من قبل طبيب نفساني ، او مجنون مثلهم . ولكن هنالك صيحات رفض كثيرة تمتاز بالوضوح والجلاء والوعي الكامل للمأساة . . هذه الصيحات لم تخل منها صحيفة او مجلة ، او ندوة تلفزيونية او اذاعية ، هذا بالاضافة الى الاحاديث الخاصة التي تدور في ارجاء الجامعات والاندية والبيوت .

البروفسور برادلي ، وهو شاب في الخامسة والثلاثين قال في مناقشة تلفزيونية « نحن مسؤ ولون عن جنوح مراهقينا وانغماسهم في تلك الحياة الرافضة اللامسؤولة واللامبالية . بريطانيا لم تعد امبراطورية ، لكن كل ما فيها من مؤسسات وتقاليد وحتى من سياسة خارجية ، ما يزال موروثاً من تلك النظرة المتعالية الاستعمارية العتيقة ، جيل الملكة فيكتوريا ما يزال يمارسها بحكم العادة وبحكم عجز شيخوخته عن مواجهة الواقع وما يتطلبه عصر الملكة اليزابيث من تبديل . ولذا فالجيل الجديد عاجز عن الانسجام مع زيف هذا الموقف ، وهو رافض له ، والخطر في رفضه هذا هو انحرافه في التعبير عن حقيقة مدلول رفضه .

ان تبديلا جذريا يجب ان يحدث وقبل فوات الاوان . . .

وصيحة البروفسور برادلي هذه نسمعها كل يوم منطلقة من فم مثقف او آخر ، ومن افواه المواطنين العاديين ، كل على طريقته . . . واذا كانت (الهيبية) كما يدعي البيتلز هي (الرفض) ، فان مثقفي بريطانيا يمارسون هيبيتهم مع احتفاظهم باتزان شكلهم الخارجي ووقار مظهرهم التقليدي ورصانة لغتهم وعنفها . . . انهم يفصلون تماما بين ثورة الشكل وبين ثورة المضمون ، ليس لان الثورة الخارجية ـ الصرعات ـ لا تكفي فحسب ، ولكن لانها تكاد تنمو حتى تطمس المضمون وتنحرف به وتشوهه . . . وهم يصرون على توضيح المشكلة عبر الابجدية ودون الاستعانة (بالماريوانا) والـ (ال. اس . دي) والحشيش ،

Akhawia.net

وتقول السيدة جانيت سميث ـ مربية اجتماعية لامعة ـ « رغم انني بكامل وعيي ـ وتلك حالة تافهة وغير مهيأة لاستيعاب قضايا الوجود ! ـ الا انني اسمح لنفسي بالقول ان جنوح شبابنا مرده الى جنوح دولتنا وتماديها في تجاهل ضرورة اعلان التبديل : الامبراطورية ذهبت ومعها يجب ان تذهب اشياء كثيرة ما نزال نرغم الجيل الصاعد على ان يكرس نفسه لها ،،وهي لم تعد تصلح الا للمتاحف . . ان الافتقار الى الخطة الواضحة للامة يدفع بابنائنا الى هذا الضياع . . وحرام ان يخسر شعبنا مكاسبه الانسانية الرائعة التي تتمثل في الشخصية الانكليزية على الصعيد الفردي وحرام ان لا يتكامل نموها نمواً معاصراً ويمتد ليشمل الدنيا ، ويؤثر في تاريخ التطور الانساني للبشر على هذه الكرة الارضية . . . » . . .

وكلام السيدة جانيت على جانب كبير من الصحة والزائر الغريب هو بلا شك اكثر قدرة على التمييز . .

فالغريب ، عربياً كان او غير عربي ، يلحظ في بريطانيا امورا حضارية على المستوى الانساني تلفت نظره بل ودهشته وتثير غيرته . . . وأهمها . . .

الحرية ، الصدق ، الكرامة

المواطن البريطاني حر تقريباً ، وبما في الحرية من حس بالواجب ، ومن احترام لحرية الآخرين . وهو لذلك صادق غالباً لا نادراً كما عندنا ، لأنه ليس بحاجة للكذب كي يسرق حريته أو يمارسها . . .

وهو بالتالي يحس بكرامته كانسان لان علاقته مع دولته وعلاقة دولته معه مبنية على هذه الأسس بصورة رائعة تثير غيرة المواطن العربي وغير العربي . . .

(وعقدة العظمة والامبراطورية هي وحدها الثغرة بين المواطن وسياسة دولته وهي تقريباً سبب المأساة البريطانية المعاصرة) . . .

فالمواطن البريطاني هو نسبيا انسان حر في دولة حرة ، الامر الذي لم يتوفر لاي مواطن عربي . . تقريباً !

فالمواطن العربي هو غالباً اما انسان غير حر في دولة حرة (اي غير مستعمرة من قبل الاجنبي) . او انه انسان غير حر في دولة غير حرة ارضها مستعمرة او واقعة تحت نفوذ ما . . . وهو ان لم يكن فريسة للاجنبي المحتل لارضه نجد حريته فريسة لاحتلال بني قومه المستثمرين او لاحتلال الجهل : اي لامتداد الاستعمار الماضي الطويل في حاضره . . .

Akhawia.net

وقد اتخذت الامم المتحدة قرارا باعتبار عام ١٩٦٨ السنة الدولية لاعلان حقوق الانسان وهي : حق الحياة ، حق الحرية ، حق الملكية ، حق السعادة ، حق المواطن في حكم نفسه . . . مع ما يقابل هذه الحقوق من واجبات ، ورفعت شعار العصر الانساني : كي يكون الانسان مواطنا حرا في دولة حرة ، وكي تكون دولته دولة حرة في عالم حر . . .

وعلى ضوء هذه النظرة نستطيع ان نقول : البريطاني مواطن حر في دولة شبه حرة ولكن في عالم غير حر . . .

كما لا نملك الا ان نقول : المواطن العربي مواطن غير حر في دولة شبه حرة او محتلة في عالم غير حر . . .

وقوى كثيرة تستعمر الفرد العربي وتشوه انسانيته في أكثر من قطر بعضها موروث يحمله في داخله ، والباقي يتخذ شكل قوى خارجية هو من بعضها . . . ورؤ ياه لها تتكون بوضوح حينما يلحظ نقيضها . . وحينما يرقب انساناً حراً كمواطن ابرز نماذجه المعاصرة : الفرد البريطاني . .

بريطانيا « هايد بارك » واحدة كبيرة

(هايد بارك) ليست وحدها حديقة الحرية هناك . . ان بريطانيا بأكملها هي هايد بارك واحدة كبيرة يتمتع فيها المواطن بالحرية نفسها ، وليست هايد بارك الا النموذج الذي تقدمه البلاد للسواح والزوار وتعرض فيه (عينة) عن الحرية الفردية فيها . . . . والدليل هو ان اكثر المتحدثين في الهايد بارك هم من الغرباء المحرومين من حق الكلام في بلادهم ! وانك تستطيع ان تقول خارج الحديقة على رصيفها الخارجي اي شيء تقوله داخلها دون ان يعاقبك القانون الا بتهمة عرقلة السير ، كما انك لا تستطيع ان تقول داخل الحديقة ما يحرمه القانون خارجها .

ان التهجم على الملكة (أي مبدأ الوطن في عرفهم) هو الشيء الوحيد المحرم قوله داخلها وخارجها . . . وعدا ذلك ، كل شيء مباح . . . والصحافة الفرنسية هي وحدها التي تعامل الاسرة المالكة الانكليزية كما تعامل نجوم السينما .

الصدق

ذات صباح كانت شمسه تضيء بشدة على غير عادة ، تفجرت اعماقي بالفرح والمحبة الغامضة ـ انا ابنة البلاد المشمسة ـ وبالحاجة الى مخاطبة انسان ما ، اي انسان . . . ولما كنت استقل الباص ، لم يكن أمامي سوى جاري في المقعد . . . فاضت عواطفي نحوه فالتفت اليه وقد قررت التحرش به على الطريقة الانكليزية وقلت له : الشمس

Akhawia.net

ساطعة ، اليس كذلك ؟ . . .

لم يجب فوراً ، وانما ارسل بنظراته خارج نافذة الباص من حيث كانت تتدفق الشمس كما لم تفعل ابداً في لندن وابتسم بكل ما في طاقة اعوامه الثمانية والثمانين على الابتسام واجاب بتوءدة : أجل . اعتقد ذلك . . . «I should think So» والترجمة الحرفية لرده هي : من المفروض ان اعتقد ذلك . . والواقع ان هذا التركيب اللغوي الذي يستعمل باستمرار للرد بالايجاب لا يلفت النظر فحسب وانما يتضمن تفسيراً كلياً لما اعنيه حينما اتحدث عن « الصدق البريطاني » . . . انه لا يقول : نعم ، الشمس ساطعة كما هي صيغة الرد في اكثر اللغات وانما يسبقها بكلمة : اعتقد . .

من جديد تعمدت أن أسأل الرجل الجالس الى جواري : ما الساعة ؟

اجاب بعد ان نظر الى ساعته : اعتقد انها العاشرة والنصف . قلت له : هل أنت واثق . أجاب : من المفروض أن أعتقد كذلك . . .

ان في هذا التركيب الانكليزي التقليدي وعياً رائعاً بقضية الحقيقة ونسبيتها . . والشمس حتى الشمس ، لا يسمح لنفسه بتعميمها كحقيقة لمجرد انه يراها هو . وان الشمس ساطعة بالنسبة اليه لانه يراها ساطعة ! لكنه لا يفترض ان هذه (الحقيقة) ـ حتى هذه (الحقيقة) ـ سواه مرغم على ان يتبناها ! . .

وفي رده عن الساعة ، يأخذ بعين الاعتبار ان ساعته قد تكون على خطأ ، وانك قد لا تأخذ توقيت « بيغ بن » الذي اصلح ساعته وفقا له ، بعين الاعتبار ، اذ قد يكون لك انت توقيتك الخاص . . .

هذا الصدق العفوي الرائع الذي نجده في اكثر ما يتفوه به البريطاني او يقوم به ، والذي تنم عنه حتى تركيباته اللغوية ، هذا الصدق هو جزء من علاقة البريطاني بنفسه وبمؤسساته الحاكمة . . . وهو أمر يفتقر اليه العربي بنسب متفاوتة . . .

ففي امثالنا نقول : هذا الامر واضح مثل عين الشمس ، ونقول : الكذب ملح الرجال .

بالنسبة للبريطاني ، حتى (عين الشمس) لا تصلح حقيقة أنت مرغم على تعميمها ! . . وفي تغنينا بحب وطننا يقول الزجالون : من هون من سفح الجبل طرطشنا الدنيا علم . . .

والبريطاني الذي لا يقل عنا حبا لوطنه واعتزازا به كان من الممكن ان يقول : من هون من سفح الهايد بارك (اعتقد اننا) طرطشنا الدنيا علم . . .

Akhawia.net

وهذا التقديس الرائع للصدق يتضمن فهماً لا يقل روعة عن مفهوم الحرية وهو : ان حقيقتي ليست بالضرورة حقيقتك ، ومن حقك ان تعبر عنها بقدر ما من حقي ذلك . . وهذا الموقف العام نجده في كل نواحي الحياة البريطانية وبصورة خاصة في علاقة المواطن بالدولة : الحاكم لا يكذب بنظره على الاقل ، الوسائل الاعلانية لا تكذب ويصدقها . . .

(هذه الصفة الطبية وعتها اسرائيل جيداً واستغلتها جيداً ، فالمواطن البريطاني الذي لا يكذب يؤمن تمام الايمان بما يقرأه في صحفه ولا يدور بخلده قط ان الاخبار ووجهات النظر الصهيونية المدسوسة هي كلها كاذبة) . . .

وفي بريطانيا ، طيلة العامين اللذين قضيتهما لم يستوقفني مرة رجل بوليس ليسألني عن هويتي أو أوراقي كما ان ذلك لا يحدث قط في هذه البلاد (منذ ايام الحرب العالمية الثانية) . . . نحن نعيش باستمرار في جو من حالة الطوارىء ، السير بدون الاوراق الشخصية ممنوع . الوطن من حيث الاصل حماية من الاحكام العرفية للغاب ، ونحن للاسف نعيش غالباً في ظل الاحكام العرفية للحكام ! . .

توقيف مواطن هناك بصورة اعتباطية ، مسؤ ولية يعاقب عليها المسؤ ول في حال اثبات المواطن لبراءته .

المواطن عندنا يوقف ويسجن وحينما يفرج عنه حياً يسبح بحمد السلطات فرحاً بنجاته ! . . بدلا من مقاضاتها كما يحدث هناك !

مثال آخر صغير على الاستهتار بالفرد عندنا ، ذلك الاستهتار الذي لا يمكن ان يحدث هناك . .

اذا تصادف لمناسبة ما ان كان ضروريا عرقلة السير من أجل مرور موكب رسمي ما ، يتم الاعلان عن ذلك قبل حين كي لا يتضرر اي مواطن من جراء ذلك وكي يعد للامر أهبته . . .

المواطن العربي لا يدهشه بل ولا يدعوه الى الاحتجاج ان يفاجأ بشرطي سير يأمره بتبديل وجهة سيره لان الطريق مقطوع بسبب مرور الرسمي (فلان) او سعادة (علان) . . .

حتى في الشتائم

والانسان العربي مضطهد غالباً وغير حر حتى في الاشياء التي يرتبط بها حبا . . انه مستعبد حتى في حبه !

Akhawia.net

فالشتائم في اللغة الانكليزية كلها موجهة نحو الفرد (المشتوم) . في اللغة العربية الشتائم منصبة على الاخت او الام مثلاً . . . اذا ترجمنا هذه الشتائم الى الانكليزية لا يشعر الانكليزي انك تشتمه اصلا ، وانما يشعر بانك تبدي وجهة نظرك نحو افراد أسرته وليس من شأنه او من حقه ان يؤكد او ينفي ذلك ! . . واقصى رد يمكن لك ان تسمعه في هذه الحالة هو انه (في حدود علمه) لا يعتقد بأن ما تقول صحيح As far as I am concerned.

وهو تعبير رائع آخر (حتى على صعيد الشتيمة) عن احترام الفرد لفرديته ، وبالتالي لحدوده الانسانية . وحدود سواه . .

الحرية الفكرية :

وكنتيجة لهذا كله ، فالحرية الفكرية هناك حقيقة . . . التفاهات والقذارات والمجلات الخلاعية تلفت نظر الغريب للوهلة الاولى ، ولكن الشعب البريطاني المقيم يستمتع بالفضائل الباقية لهذه الحرية حتى الآن على الاقل . .

هنالك بلد عربي كان الى وقت قريب تحت الانتداب البريطاني . . وكانت هنالك صحيفة لبنانية عقائدية يسمح البريطانيون لها بالدخول رغم احتلالهم ورغم مساندتها للحركات العقائدية والمناوئة للاحتلال ، وقد منعوها مرة واحدة من الدخول لانها كذبت بنشرها خبراً ملفقاً وليس لانها ضدهم !! . . والمفجع انه يوم ذهب الانتداب وتسلمت مقاليد حكم البلاد أيد وطنية عربية ، تم منع الصحيفة نهائياً من الدخول لمجرد خلاف حزبي داخلي ! . . .

والامثلة عندنا أكثر من أن تعد وتحصى . . .

الحس بالاسرة والضمان

هذه العلاقة الرائعة بين الحاكم والمحكوم ليست مفتعلة في مظاهرات تهريجية مأجورة وانما هي حقيقة متبادلة تتجلى في نواحي الحياة كلها .

ما نسميه نحن بدائرة الامن العام يسمونه هناك Home office أي « مديرية البيت » بدلا من « مديرية الشرطة » . . .

فالوطن بيت كبير ، والشرطة من أهل البيت ،والمساواة بالتالي ليست حتى موضوع نقاش وانما هي حقيقة عفوية . والمواطن لا يعيش مطارداً بحس الخطر والقلق واللااستقرار ، وبيته الكبير الوطن هو بيت بحق ، ومسؤ ولوه هم ملجأه لا لصوصه . . . اذا مرض فالدولة تداويه بالمجان . واذا كان عاطلاً عن العمل فهو يتجه الى

Akhawia.net

أقرب مركز بوليس مُبَلِغاً بذلك ، فتتولى الدولة منحه راتبا اسبوعيا ريثما تجد له عملاً !! انه ليس مهدداً قط بالفقر اي بالاذلال . . . وهو اذا اختار البطالة ، يكفي ان يبلغ عنه اي شخص كي يزج به في السجن بتهمة عدم العمل !! . . والبوليس حبيب الاطفال منذ صغرهم وتقام المعارض الطريفة خصيصا له ، وفيها اشياء كثيرة حلوة غير ادوات التعذيب وقضبان السجون . . .

مثال آخر رائع على ان الوطن أسرة حقيقية نجده في برامج الاذاعة . . هنالك محطة اذاعية تذيع محليا وهي اذاعة الاسرة . . . وفيها الحان وموسيقى ونشرات اخبار موجزة جدا وفيها برنامج جديد يبث للمفقودين فقط من أسرة المجتمع . . . كأن يقول المذيع فجأة : « اين أنت يا بول آدامز . أمك قلقة جدا ، اينما كنت ، كلنا بحاجة اليك ونهديك هذه الأغنية . . . »

وقد عاد عشرات المفقودين عبر هذه النداءات المفاجئة . . .

وفي أيام الطقس السيء جدا ، تتحول الاذاعة الى مرافق حنون لقادة السيارات وهكذا . . . يظل كل فرد ،محروما من الاحساس بالاضطهاد .حتى اسنانك تهتم الدولة بحمايتها ، وتأتيك بطاقة (اتوماتيكيا) كل ستة اشهر من طبيب اسنانك المجاني يذكرك فيها بانك لم تزره بعد !! . . .

وهكذا فالدولة موجودة في كل مكان ومع المواطن في كل خطوة ، وليست ممثلة فقط في صورة رجل بوليس عبوس او سلطة تضطهده .

انها معه في الاذاعة والبيت والمدينة ، وحتى في سفره في انحاء البلاد . . . وحتى اذا تعطلت سيارته فالدولة موجودة بصورة علبة فيها هاتف كل عدة كيلومترات في اي طريق حيث يرفع الفرد سماعة الهاتف ويذكر اسمه ويحدد موقعه واين تعطلت به السيارة لتأتيه بعد لحظات فرقة الانقاذ . الانسان هناك مهم ، كل انسان . . . وآخر ابتكار في هذا المجال بُدىء بتطبيقه هو مراكز بوليس متحركة اسمها « مراكز السيطرة على المرور » بحيث لا يموت الناس من الاهمال في حال وقوع اي حادث مفاجىء .

ولذا فالشعب هناك هو الذي يختار الاشتراكية لانها تنظم علاقة افراد الاسرة ـ الوطن ، على نحو عادي وصحيح وبناء . . . انها حس اجتماعي قبل ان تكون صفة سياسية . . . انها محاولة للوصول الى الديمقراطية الحقة . . .

المفجع اننا في بعض البلاد العربية لم نعرف بعد من الاشتراكية الا استلاب الحرية ، والطبقة التي كانت تسرق الشعب باسم الرأسمالية قد استبدلت بطبقة اخرى

Akhawia.net

صارت تسرق الشعب وبالوسائل العتيقة نفسها ولكن تحت شعارات جديدة !

والسبب هو ان اشتراكية انكلترا هي حصيلة تطور انساني حقيقي وليست حصيلة تطبيق نظري ارغامي . .

وكل ما يدور حول المواطن البريطاني منذ طفولته يدفع به خطوات في طريق الرقي الانساني عبر وسائل رائعة : الموسيقى . الفن . الفكر . المتاحف . المعارض . المسرح .

لندن ،والفن مجانا كالخبز

زجاجات الحليب التي تترك امام الابواب كل صباح دون ان تمتد يد لسرقتها دلالة على انه لا أحد يموت في بريطانيا جوعاً الى الخبز او الحليب . . .

والحفلات الموسيقية المجانية في الحدائق العامة والهواء الطلق تدل على انه لا احد يموت ، من الجوع الفكري هناك ابداً . . . والمعارض اليومية المختلفة والمجانية . . والحدائق والبحيرات والفرح كلها بالمجان . . . وحتى جدران الهايد بارك الخارجية تغطي اسوارها اللوحات كل اسبوع . .

كأن الفن هو الذي يغلف الحرية . .

الفن يغلف الحرية ، والاسود يرسم الابيض . . وسفينة الاستعمار حيث يجب ان تكون فعلاً : مجرد ذكرى . فماذا تبقى ؟

الوجه الآخر للعملة

يبقى الوجه الآخر لحرية الامة والذي لا تصح حرية بدونه . . . وهو اعتبار هذه المكاسب الانسانية حقا للانسانية كلها من الواجب ليس تعميمها فحسب ، بل النظر الى بقية الشعوب على ضوئها . . .

وذلك لا يتم الا حين تتخلى بريطانيا عن نظرتها التقليدية الى الشعوب الاخرى والتي تتحكم فيها عقدة العظمة .

والمعرفة ، تراثها الوحيد الباقي توظفه في خدمة الانسانية بعد ان وظفته طويلاً في خدمة مطامعها اللاانسانية في امتصاص دم الشعوب . .

وبذلك وحده تظل بريطانيا عظيمة ولكن بمفهوم العصر الحديث الانساني .

وبذلك وحده تنقذ جيلها الطالع من الجنون ، وجيلها الباقي من ازدواج الشخصية .

Akhawia.net

لندن ١٨/ ١٠/ ٦٨

. . . ورجعـــت

« ايها الضمير الانساني . .
أيها المرمي كالنفاية عبر شوارع العالم .
تدوسك المركبات المسعورة
واحذية المومسات في ليل اوروبا وهونغ كونغ ونيويورك
أيها المنهك المتشرد .
أيها الجائع لكسرة خبز الحقيقة .
استيقظ
اني أصرخ فيك عبر المطر والريح
استيقظ ،
وضع يدك في يدي
لندفع معا من عالمنا رياح الظلام
التي تهب عليه الآن
من اقبية اللصوص ومجرمي الحرب
في « البنتاغون » و « ١٠ داوننغ ستريت » .
« للشاعر السوداني سيد احمد حردلو »

حتى أنت يا رجل البوليس ؟

كنا خمسة في مقهى « الدانمرك » بحي ساوث كنسنغتون . ونحمل خمس جنسيات مختلفة . . . أكرم صالح فلسطيني ، ذكي ومرح وفي قاع ضحكاتـه يهـدر ذلك الحـزن الفلسطيني المعتق . . منى ، صديقة لبنانية . . كريستوفر مانـدي ، انـكليزي ، يحمـل الماجستير في الهندسة من جامعة لندن ، هادىء وذكي ويتفهم القضـايا العـربية بحـكم صداقاته الجامعية الحميمة للكثيرين منهم . . ورابعنا توني دورثي ، ايرلندي ، سنة ثانية هندسة ، وأنا سورية .

وكان الحديث يدور مرحا صافيا وأكرم يغسل الغبار عن وجوهنا بنكاته . . ثم تطور

Akhawia.net

الحوار ، وحدثنا توني عن اجازته المرتقبة في اسرائيل ! وهنا تلبد الجو وبدا الغضب ممزوجاً بالألم في وجه اكرم بينما صمتنا جميعا في انتظار ردة الفعل . . . وبدا لي انه يكافح كي يكبح غيظه . . ومما لا شك فيه انه نجح في ذلك اذ جاء صوته حين تحدث هادئا محباً ومقنع النبرات . . . واستمعنا مع توني الى اكرم وهو يشرح له تفاصيل القضية الفلسطينية . وفوجئنا بان توني كان فعلاً يجهل كل شيء عنها الا ما قرأه في الصحف وكل ما يكتب في الصحف هناك من وجهة النظر الصهيونية ومؤامراتها لاخفاء الحقيقة .

وطالت محاضرة اكرم ، وخشيت على توني من الضجر (فكرت ان حقن توني بالحقيقة يستحسن ان يكون على جرعات) ، ثم دق الجرس في العاشرة والنصف مؤذنا باغلاق المكان وكان لا بد من (قطع) المحاضرة . . .

وقررنا الذهاب الى دار الزميل مارون عقيقي لانه مزود باستمرار بالقهوة العربية التي نفتقدها في لندن وبلطف مارون .

وفي السيارة ، ادهشني ان توني عاد الى الاستفسار من اكرم عن بعض النقاط ، وعاود الحوار بشهية ، فهو صادق ، وهو يريد ان يعرف المزيد .وكنت اظنه قد ضاق بما قيل .

وهبطنا جميعا من السيارة في (فينبورو رود) امام دار صديقنا مارون عقيقي وبدأنا نقرع الجرس بالحاح شديد دون اي جواب . . . وقررنا ايقاظه باي ثمن ، ومر بنا رجل البوليس فلم يعجبه المشهد . . . فالاجراس تستعمل عادة في لندن لمرة واحدة ، ولاعلان قدوم الضيف لا لايقاظ المضيف واهل الحي ! .

واقترب منا يسأل : ما الحكاية ؟ وبلا تردد (اشتكى) اكرم بمرحه المعهود من نوم صديقه وطلب من رجل البوليس مساعدته على فتح الباب لايقاظه (في بريطانيا لا يحق حتى للبوليس اقتحام دار شخص الا بعد اذن من المحكمة) ولذا لم يتذوق رجل البوليس النكتة واعتقد بأنه امام افراد عصابة . .

وهنا تفضلت الأخت منى بالحديث باللغة العربية مما زاد في حيرة رجل البوليس لانها شقراء وانكليزية المظهر . . ولذا سألنا بصرامة عن جنسياتنا وماذا نفعل هنا .

كريس قال : انكليزي جدا .

اكرم قال : فلسطيني .

وأنا قلت : سورية . . .

هنا قاطعنا رجل البوليس فجأة وكأنه اكتشف كذبة لا تطاق :

Akhawia.net

كيف ؟ السنا في حالة حرب ؟ اليست هنالك حرب بين سوريا وفلسطين . . .

احذركما من انتحال الجنسية !! . . .

ورجل البوليس في بريطانيا متعلم اذ يشترط ان يكون حائزاً على الشهادة الثانوية بالاضافة الى ما يتعلمه في مدرسة البوليس . . . انه اذن يمثل الطبقة المتوسطة فكرياً وثقافياً ، لكنه يجهل الفرق بين اسرائيل وفلسطين . . .

وليلتها كان رجل البوليس بحاجة الى رجل بوليس يخلصه من براثن اكرم . . .

وقال توني في اخلاص شديد : لست وحدي جاهلاً بكم وبقضاياكم . . . كلنا كذلك . . فعلا . . .

والواقع انني لم التق بعربي في لندن الا وكانت لديه حكايا كثيرة مشابهة يرويها عن جهل الانكليز التام بكل شيء يتعلق بنا وبصفة خاصة جيلهم الجديد . . . فجيل (الامبراطورية) من البحارة والجنود المسنين يعرف ابناؤه الكثير عن العرب بحكم وجودهم في مصر والعراق والاردن ايام زمان . . . اما الجيل الجديد ، جيل ما بعد الحرب فلا يعرف عن تلك الاماكن حتى ولا اسمها . . واسرائيل هي وحدها الاسم البارز في خاطره ، والذي يحلم بقضاء اجازته فيها ، « مناخ اوروبي راق تضاف اليه متعة الشمس الساطعة » . .

بين اصدقاء مصالحهم ، واصدقاء قناعاتهم

ولكن ، أليس بين الانكليز جميعاً من يقف الى جانبنا ويؤيدنا ؟ ثم اننا قد سمعنا الكثير عن مجلس تنمية التفاهم العربي البريطاني . . . وسمعنا الكثير عن النائبة مارغريت ماكاي الصديقة المحبة للعرب ، وعن كثيرين سواها ممن تجمعهم صداقات حميمة بالمسؤ ولين العرب . . . وعن موجة محاولة التفهم الاخيرة . .

وتساءلت ترى ما الذي يفعلونه غير تلبية الدعوات وردها والتحدث بحب الى ضيوفهم العرب خلال حفلات الشاي التي يقيمونها ؟؟ . . .

ومن اجل البحث عن جواب لجأت الى صديق عربي مقيم في لندن ، تربطه بتلك الاجواء صداقة قديمة وشبه زمالة عمل في هذه القضايا . . .

قال لي بصراحة : اصدقاء العرب من الانكليز يمكن تصنيفهم الى فئات ثلاث :

١ ـ الفئة الرومنطيقية : واكثرها من المتقدمين في السن من جيل الامبراطورية ورؤ ياها للعرب تحمل مفهوما رومانتيكيا تقليديا . . العرب يذكرونهم بماضيهم المجيد وهم يحبوننا كما يحبون صورهم التذكارية الحلوة ، يحبوننا كشعوب طيبة ومسكينة ومظلومة

Akhawia.net

ولا تقوى على الوقوف وحدها ، وحرام التخلي عنها لمستعمر آخر !! . .

٢ ـ فئة اليوتوليتاريا اي الفئة النفعية : واحسن نموذج لحبها هو حب (لورانس اوف آريبيا او لورانس الصحراء العربية) للعرب . . انه حبهم لمصالحهم في البلاد العربية التي يعرفون مدى غناها بالثروات الطبيعية وبالسذاجة السياسية . . انه حب الانياب لقطعة لحم شهية . .

٣ ـ فئة الشبان المثقفين : واكثرهم من الشبان الذين اتاحت لهم الظروف الجامعية او العملية فرصة الاحتكاك بشبان عرب ، واطلعوا عبرهم على الشخصية العربية وعلى وجهة النظر العربية التي يجهل كل شيء عنها من لم تتح له فرصة الاحتكاك المباشر بالعرب . (ليس بين وسائل الاعلام كلها ما هو حيادي ! كلهم ضدنا ، وذروة حيادهم هي تجاهلنا والصمت عنا !) . . .

واكثر افراد هذه الفئة يساريو التفكير ومتحررون من عقدة الامبراطورية وقادرون على النظر بتجرد الى قضايا الكفاح الانساني في اي قطر . .

واذا كان افراد الفئة الاولى والثانية من اصدقائنا هم اصدقاء لخيالاتهم او لمصالحهم فينا ، فان صداقة افراد الفئة الثالثة لنا اجدى واعمق لانهم يقفون معنا عبر صداقتهم الفكرية للحرية والعدالة . .

لو عرفوا حقا ،لفعلوا شيئا

ولكن ، هل يجدي ان يعرف البريطاني حقيقة ما يدور ؟ وهل يدفعه ذلك الى الوقوف علناً الى جانب العرب ؟ . . .

« انت ايها البريطاني المؤمن بعدالة قضيتنا ، ماذا فعلت ؟ » .

بشراسة طرحت هذا السؤال على كريستوفر ماندي (كريس) ، الشاب الذي عاش في المسكن الجامعي الداخلي سبعة اعوام مع اخي ومع شاب عربي مصري هو ادوارد نسيم ، وجميع اصدقائه وصديقاته من العرب .

سألته : « ايمانك بعدالة قضايانا . . . هل دفعك الى اتخاذ اي موقف ايجابي عملي بالاضافة الى تأييدك الصوفي لنا ؟ »

لم يرد ، وانما استأذنني لحظات بحث خلالها في ادراجه ثم ناولني نسخة عن رسالتين، الاولى موجهة منه الى الـB.B.C ، والثانية تحمل رد التلفزيون على رسالته . . وكانتا تدوران حول حادثة شهيرة ، كان الصدام العربي والصهيوني فيها علنيا ، والتحيز البريطاني سافراً . . . كان ذلك في برنامج تلفزيوني اسمه « يورويتنس » اي

Akhawia.net

« شاهدك » . وهو نصف شهري ، ويقدم على صورة محكمة محلفوها الثلاثون جميعا من المحامين . . . وتطرح قضية ما عبر شاهدين احدهما يؤ يد القضية والآخر ضدها . ويحق لكل منهما استدعاء شهوده واسماع المحلفين ما يشاء . . . وفي آخر البرنامج يصوت محلفوها المحامون لمن يقنعهم اكثر . . والمحاكمة علنية تلفزيونيا وعمليا اذ يحضرها جمهور حي ، تماما كما في اية محكمة .

وهكذا كان ان نطق كريستوفر ماهيو عضو البرلمان الانكليزي بوجهة نظر العرب . . . وكان شاهدهم بحق . اما الشاهد الآخر فكان جوجر يماند النائب ، والزعيم السابق للحزب الليبرالي مدافعا عن اسرائيل . . .

واحتد النقاش . . . وكان من بين شهود وجهة النظر العربية ذلك الاستاذ الجامعي اليهودي ومايكل آدامز . . . وقد اعترف مايكل آدامز في البرنامج بالضغط الذي تعرض له يوم كتب في « الجارديان » عن المعاملة اللاانسانية التي يلقاها العرب في اسرائيل المحتلة . . .

وكل من تابع البرنامج من العرب ومن الانكليز كان واثقا من ان اية هيئة تحكيم مفكرة وعادلة لا يمكن الا ان تصوت مع وجهة نظر العرب . . .

ولذا كانت مفاجأة للجميع حين صوت اكثرية المحامين لاسرائيل !! . . ويومها جن جنون الانكليز بمن فيهم كريس ، ليس حبا بالعرب ، وانما ثورة لكرامتهم . . . واذا اكتفى المتفرجون العرب بالقول ببساطة ان لجنة التحكيم عميلة ومهيئة سلفا وليس في الحكاية جديد ، فان الانكليز قد وجدوا في الحكاية اهانة شخصية لهم . .

بالنسبة اليهم انتصار اي من المتناقشين على الآخر ليس بالضرورة دليلا على عدالة قضيتهم بقدر ما قد يكون دليلاً على تفوقه في النقاش على خصمه . .

وكان رأي المتفرجين الانكليز الحياديين وبالاجماع ان (كريستوفر ماهيو ـ عُرْب) قد انتصر خلال النقاش على خصمه (اسرائيل) ، وانه كان من واجب المحلفين الاقرار بذلك ، الامر الذي حدث نقيضه ! . . .

و (كريس) الذي ثار لظاهرة « التحيز » تلك . . . وفوجيء بها كبريطاني يؤ من ايمانا اعمى بنزاهة وسائل اعلامه وحيادها الامثل لم يتمالك نفسه ، وكتب الى التلفزيون الرسالة التي عرض علي نسخة عنها طالبا فيها من مخرج البرنامج اسماء المحلفين ليتأكد من انه لم (يتصادف) ان كان اغلبهم من اليهود والصهاينة ـ كما يتهم اصدقاؤه العرب البرنامج ! ـ كما لم ينس ابداء (دهشته) لما وقع . .

Akhawia.net

وطبعا جاءه الرد خطياً وفيه ينفي مخرج البرنامج انتوني سميث التهمة ويعتذر عن ذكر اسماء المحلفين حرصا على (تقاليد) البرنامج .

ويختم كريس سرده لهذه الحادثة ذات المدلول الكبير بقوله : لا تلومي شعبنا . . . انك لا تستطيعين لوم الناس من اجل شيء يجهلونه . .

عالمهم المغلق ، ونحن

« لا نستطيع ان نلوم الناس من اجل شيء يجهلونه ! » . . . كنت اردد هذه العبارة وانا اتجول كعادتي في الشوارع اتأمل كل شيء . . . كل انسان هنا يمارس عمله باخلاص ، ويستغرق فيه تماما . . . العالم الخارجي ، خارج حدود جزيرته لا يلقى من اهتمامه الا بقدر ما له من مصالح مباشرة فيه . . . هذا مصور صحفي وموديله على حشائش الهايد بارك . . . ثم خمسة يستقلون (بسكليتا) واحدا بانسجام ونظام . . . كل انسان هنا غارق في دائرته الصغيرة . .

والصحف هي وحدها نافذته على العالم الخارجي . . . الفرد البريطاني العادي اليوم ليس متواطئاً . . . انه ضحية تجهيل الاخطبوط الصهيوني له اكثر مما هو جلادنا ـ عن سابق تصور وتصميم ـ .

اولئك الغارقون في عوالمهم الصغيرة الكبيرة ، واحزانهم وتوقهم ورفضهم وتمردهم ، من يصرخ في عالمهم بالحقيقة ولو لمرة . . .

اقرأ صحيفتي .

هنالك خمسة اخبار عن الكلاب . . . (يا الهي ، ليس فيها خبر عن فدائي واحد يموت الآن ، او يعذب الآن ، أو ينسف دار أسرته الآن !) . . .

غاظني بالذات خبر مطول عن ٥٠ ألف باوند تركتها سيدة كدخل سنوي لكلبها « بن » ، ثم صورة الكلب الثري .

فالمعرض الروسي الالكتروني المذهل الذي كنت قد شاهدته منذ ايام وعنوانه « الذرة والسلام » وفيه اشياء مذهلة عن الحياة السوفياتية الحديثة ، حتى هذا المعرض لم يفز من صفحات الجريدة باكثر مما فاز الكلب اياه . . . اما نحن . . . فلا شيء سوى تعليق الصحفي الصهيوني المسموم ، والذي يتهم العرب فيه بالتأهب لعدوان جديد على اسرائيل ، ويستشهد بأقوال من صحفنا بالذات ! ! (متى نكف عن التهويش والكلام ؟)

ومتى تصبح قضيتنا العادلة موضع اهتمام جيلهم الصاعد ، كقضية فيتنام ؟ ومتى يعرفون ان هنالك اكثر من غيفارا عربي عاش بصمت وتعذب ومات بصمت ؟

Akhawia.net

التشويه ما يزال مستمرا

قررت ان أشكر صديقي وصديق العرب كريس على الطريقة الانكليزية . . . اي خطياً وعلى بطاقة بريدية .

وفي اهم مكتبات (اوكسفورد ستريت) وجدت جناحاً خاصاً ببطاقات الميلاد وفقا للتقويم اليهودي . . وكانت كلها تحمل صوراً دعائية لاسرائيل . . . كانت كل بطاقة عدوانية ، وعدائية كرصاصة . . .

أي عيد هو ذاك الذي اداة التهنئة فيه رصاصة ؟ واي شعب هو ذاك الذي أعياده غزوات عدوانية ؟ .

والى جانب هذه البطاقات التي تنقل صوراً رائعة (للاسف رائعة كقيمة فنية وكمهارة فوتوغرافية) عن (رقي) اسرائيل وتحضرها ، وجدت رفاً آخر من البطاقات البريدية الهزلية . . كلها يسخر من العرب ومن همجيتهم وبربريتهم . . وبينها مثلا صور تقليدية كاريكاتورية للبدوي العربي ، يدخل الى فندق انكليزي فخم حافيا ويقول لموظف الاستقبال : حينما تصل حقائبي الـ ٤٠/وزوجاتي الخمسون دعهن يلحقن بي الى طابقي الخاص !!!

أين المفر ؟!

ليلا والغم يأكلني ، قررت الهرب من كل شيء الى عوالم الموسيقى . . الى دار الاوبرا . . .

وحينما عزف النشيد الوطني البريطاني ووقف الجميع احسست بالشوق الى نشيد بلادي ، شوق محموم حار ودامع .

قررت : سأعود . .

بدأ العزف . . . موسيقى مذهلة . . .حزينة ثم وحشية عنيفة . . وميزت فيها (اكسودس) ، اكسودس التي تروي موسيقاها الرائعة حكاية « اسرائيل » . . .

من يقول للعامل ان اسطورة هذه الموسيقى الحزينة التي ينتحلونها هي اسطورتنا نحن ، وهي حكاية ابناء فلسطين الذين لم يشرد شعب كما شردوا ـ في وضح النهار ، ودون ان يدري احد بالحقيقة ! ـ . . .

من يقولها لهم موسيقى وادبا وعلى كل صعيد ؟ ومتى ؟ نحن نغني في هياج هستيري : اضرب اضرب اضرب . . . وهم يبدعون السمفونيات . .

فعلاً . ما نزال أسوأ محامين لأعدل قضية . .

Akhawia.net

حتى اشعار آخر ! . .

بعد هربي من الاوبرا الى الموت المؤقت (النوم) والى صحيفة اطالعها لتجلب لي النعاس ، (من يحق له أن ينام ؟) ، رأيت صورة اعلانية قتلت نعاسي ، وحتى حقي بأن أنام . . .

انها صورة اميركي نموذج توني كورتس (تيدي بوي دلوع) وقد هبط من طائرته الخاصة يعانق حسناء باحدى يديه وفي اليد الاخرى لكل منهما كأس من مشروب كحولي معين (لن اذكر اسم المشروب كي لا اسهم في الدعاية له ! . . .) ويركع على الارض أمامهما شاب عربي اللحية والوجه والملابس والعباءة ويقوم على خدمتهما حاملاً لهما صينية فيها زجاجة من ذلك (الرحيق الالهي) . . . في دور الخادم المثالي .

هنالك اكثر من اعلان (يكرس) صورتنا المتأخرة التقليدية ، بحسن نية ، وبسوء نية . . كهذا الاعلان الذي طالعته صدفة ولكن ، وبعد هذا كله ، هل نلومهم ؟

■ ■ ■

فتحت عيني مع الفجر . نظرت الى اخي : هل من رسائل لي اليوم ؟ قال : لا . نظرت الى النافذة . المطر والريح فقط . أغمضتهما من جديد .

قال اخي : هل سترحلين ؟ (يعرفني جيداً ، متى بدأت أسأل عن رسائل اصدقائي ، فذلك يعني انني سأعود اليهم) . لم أرد . ادار زر المذياع . انصت مغمضة العينين للاغنية الاولى من حيث المبيعات . تقول كلماتها : هالو ، صباح الخير ، أحبك ، وبالمناسبة ما اسمك ؟!

هذه الاغنية بكلماتها ، بلحنها اللامبالي لخصت لي كل ما احتج عليه من مطر وريح في العلاقات الانسانية هنا . . ظللت انصت صامتة التمزق . واخي الذي يعرفني جيدا قال لي بثقة قبل ان يغادر الدار : اذا رحلت قبل عودتي من دكان الحلاق المجاور ، بلغي سلامي للاهل وقولي لهم نحن بخير وطمنونا عنكم !! . . .

ورجعت ■

Akhawia.net

لندن ٢٥/ ١٠/ ١٩٦٨

الطيب صالح : أديب سيخلد

ارحل ، ارحل . .

واذا عدت ، فلأرحل من جديد .

عامان ،

وانا طلقة نارية شردت في ليل العالم الواسع . . . تخترق اجنحة طائرات يغسلها مطر الاعالي الوحشي ، تهيم في ضباب شوارع مدن مجهولة نائية ، تشرب غربتها مع قهوة الصباح ، وحيدة في مطارات حزينة لاتفهم حرفاً واحداً من لغة اهلها . . .

ثم لندن . . . ثم تعود .

دوما تعود .

وكلما عدت ، عاد سؤ الهم ـ اصدقائي واعدائي ـ لماذا ؟ لماذا . .

وكلما عدت ، وجدتهم أعدوا قائمة من الاسباب التي يفترضون انها دفعت بي الى الرحيل ، ومن بينها الجنون في ازقة سوهو ، والرحيل مع الـ (ل . س . دي) ، وغيرها من الاشياء المثيرة التي يحلمون بها شخصيا . .

السؤ ال المهم الوحيد الذي يسمرني عادة بعد كل رحلة هو : الا يفسد هذا الضياع المستمر قدرتك على الانتاج الادبي المنتظم والمستمر ؟ . . .

ولا اقول شيئاً لان ذلك قد يكون صحيحا . . . ولكن ، افكر باشياء اخرى كثيرة ، وتطل علي وجوه ووجوه لزملاء غربة ، ورفاق تشرد . . . واترك قصص حياتهم ، وحكاية نتاجهم مع الغربة ، تشف عن بعض ما يقذفني في ليل العالم الواسع من آن الى آخر طلقة نارية مجنونة . . . أقول : بعضها . . .

* * *

الطيب صالح

هل سمعت بهذا الاسم من قبل ؟ . . حتما ، اذا كنت من متتبعي شؤ ون ادبنا العربي المعاصر على الصعيد الحقيقي . . أي : غير الرسمي ، غير التهريجي ، غير الديبلوماسي ، غير الوصولي ، غير الانتهازي .

Akhawia.net

الطيب صالح ، وجه ابنوسي من السودان لما يظهر قط في مقاهي الحمراء والروشة ، وحفلات الكوكتيل في السفارات ولا الندوات التلفزيونية ولا الاذاعية ولا الاحاديث الصحفية ، وليس في ارشيف كثير من صحفنا ومجلاتنا صورة له (بما فيه ارشيف « الحوادث ») .

ومع ذلك ، ربما كان هو ، هو القابع في الظلمة والضباب ، من الادباء العرب المعاصرين القلائل الذين سيخلدون ، اي سيبقون حتى بعد انحسارهم عن مراكزهم ومقاهيهم ونواديهم . . .

عرفه العالم العربي مؤخرا ، عبر رواية قصيرة اسمها : « موسم الهجرة الى الشمال » ، وكتب عنها نقادنا العرب بلا محاباة ولا مداراة ، وقالوا : انه الروائي الاول الجديد . . وقالوا ذلك من اجل نتاجه ، ودون ان يعرفوا الكثير عن شخصه ، ربما لم ير اكثرهم حتى وجهه . . .

وجهه امامي . نجلس في بار صغير قرب دار الـ (بي . بي . سي) في لندن حيث يعمل . واولغا اوجريدي العراقية ، الانسانة الرائعة المثقفة ، والاديبة حتى الصمت . . والرفض . .

نتحدث ، بلا محاباة . بلا مداراة . يمر بنا الناس دون ان يلحظنا أحد ، لسنا سوى ثلاث نملات في عش يضم ٨ ملايين نملة . . . والطيب الصالح عاش هكذا طيلة سنواته العشر الاخيرة . . .

لماذا لا ينشر ؟ لا يدري ! . . انه مقل جداً . . . وتقول اولغا : النتاج الادبي ليس كولادة القطة ، (سبعة في بطن واحد) ، وليس من المفروض ان نطالب الاديب بما يطالب به الزوج الشرقي زوجته . والقضية اعمق من ذلك . . . وتصمت اولغا . واعرف ان خلف صمتها جدارا تغطيه الكتب ، وحياة حافلة بالعمق والمعرفة ، زواجها مع الشاعر الايرلندي الكبير اوجريدي ، استقلالها ، حروفها التي لم تر نور المطبعة ، وربما لن . . . فللأشياء هنا مقاييس اخرى . . .

ويتحدث الطيب الصالح . انه متواضع كالعشب ، ولا يدري كم هو مبدع . . . وبحق . . . وما تزال في ضحكته تلك البراءة الطفولية التي نجدها في قاع العباقرة عادة . . .

لماذا لا تنشر باستمرار ؟ . . يرد : انشر اولا أنشر ، موضوع آخر . . الأهم : ان اكتب . . .

Akhawia.net

والشهرة ؟ . . . يكاد لا يرد ! . . انـه فعـلا يجهـل كـم هو مبـدع ، وقـادر على المزيد . . .

يقول ونحن نغادر البار : ما زالت الدرب طويلة . . . امامي الكثير من القـراءة والمعرفة . . الكثير .

وتشير نظرات اولغا الى عشرات من الاعلانات المضيئة على ابواب المسارح المحيطة بنا ، واكاد اسمع صمتها يقول كما قال جوته :

(عالـم الفن شاسع ، لكن حياتنا قصيرة) .

ونحن ننحدر نحو التايمز كنت افكر : هنا في الغربة ، يدخل الاديب العربي عالم الابداع من الباب الضيق . . . انه هنا وحيد . . . بلا جمهور من المصفقين او الشتامين ، ومحاصر بالثقافة الراقية ، من القديمة الاغريقية حتى المعاصرة ، مرغم على ان ينضج شاء ام أبى . . فكرياً وانسانياً . . .

هنا ، لا يقرأ تفاهات تشجعه على اجهاض نتاجه قبل ان يكتمل . . . انه وحيد مع ضميره الفني والادبي . .

وحينما وقفنا على جسر واترلو ، واسندنـا اذرعنـا الى الحاجـز الحجـري المغسـول بالمطر ، واسلمنا انفسنا للريح الباردة تتسلل عبر مسامنا وترغمها على ان تظل جسورنا مفتوحة على العالم الخارجي (بدلا من الانغلاق بوحل الغرور على عالم الـذات ، ثم الصدأ والعفن) . . .

واستحالت لندن الى انابيب اصباغ فنان مجنون سكبها على شاشة النهر السوداء ، وكانت اصداء حوار طويل دار بيننا تنمو وتنمو . . فيها كثير من شظايا مرآة ارى فيهـا ذاتي . . . واحسست انني احسدهما ، الطيب صالح واولغـا وكلهـم ، اولئـك الـذين عايشوا مواجهة الذات تلك ، وبلا اقنعـة ، وطيلـة اعـوام تفـوق العشرة . . . احسـد صمتهم ، وحزنهم العميق العميق كقاع هذا النهر ، وهدوءهم الثائر الضاج ، وعالمهم الانساني لا عالم الاراجوزات التي يجد الاديب نفسه في بلادي ساقطا فيه بطريقـة أو بأخرى ، يجد خيوط الارجوازات مربوطـة باصابعـه . . . خيوطـا اجتماعية ، وتقليدية ، وسياسية ، وارهابية . . . وكلها تحد من حريته ، من نموه نموا يعي فيه ذاته . . . اديبنـا المعاصر بائس ، يكاد يصبح كحذاء الطنبوري اذا اصر على الاستمرار ، وتقلب مع تقلب السلطات والعهود ، وداري وساير ، وروض لحظات ثورته وتعلم يوما بعد يوم كيف يقدم تنازلات من شخصيته الحقيقية ـ ذاته المبدعة ـ اكثر واكثر ، حتى لا يبقى منه اكثر مما بقي

Akhawia.net

في حذاء الطنبوري من الاصل ، قبل ان يصبح مجموعة من الرقع . . .

اديبنا العربي ، لو اراد التكيف مع الظروف المعاصرة ، اي لو اراد ان يكون (مواطنا مقيما وصالحا) بالمفاهيم السائدة المهزوزة والمتناقضة ، هل يمكن له ان يحقق ذلك دون ان يرتدي على وجهه اكداسا واكداسا من الاقنعة . . .

ذلك ليس خطراً في البداية ، ولكن كما في إحدى الروايات ، قد يصطدم بذاته ، يرتطم بحقيقته ذات يوم ، ويقف أمام المرآة ليخلع أكداس الأقنعة باحثاً عن وجهه الحقيقي الذي يكاد ينساه .

وبعد ان ينتهي من خلع آخر قناع . . لا يجد وجهه ! . لا يجد له وجها . . لقد تعفن ، اهترأ ، مات . .

انه بلا وجه ، ولم يعد قادرا على ارتداء اقنعته من جديد . .

ويتمزق نهائيا . . . ويسقط في سماء ادبنا شهاب آخر من تلك الشهب التي لم يتوقف ناقد مرة ليقول : لماذا وكيف ؟ لماذا ينتهي مبدعونا بسرعة ؟

وبعد . .

يخيل الي ان للحادث الذي سأرويه مدلوله . . .

فقد عشت في لندن طيلة العام الماضي والذي سبقه ، وكان لقائي بالطيب خلاله كثيراً ، وعفوياً ، وطبيعياً . . كلقاء الناس جميعاً بالذين يعملون معهم في مكان واحد ، وتربطهم اجواء واحدة ، بالاضافة الى صداقة عميقة .

المرة الوحيدة التي بحثت فيها عن الطيب صالح كصحفية كانت خلال زيارتي الاخيرة . . بحثت عنه لاسأله الكثير . . وادهشني انني رغم صداقتنا الحميمة لم افكر بذلك من قبل . .

وفي هذه المرة الوحيدة ، هتفت الى الطيب ، ولم اجده . . .

وسألت عنه ، قلت لهم ، الصحافة تسأل عن الطيب . سكرتيرته الانكليزية ردت : انه في اجازة ! . .

وتذكرت ما قاله لي مرة عن اجازاته : اعيشها مع كتبي واوراقي وذاتي . .

وجدت في غيابه واجازته على ضوء هذه العبارة ابلغ حديث صحفي كان من الممكن ان يقوله . . .

انه في اجازة من كل شيء . . مع الشيء الوحيد الذي يجب ان يتفرغ له ، ليكون . وكان الطيب الصالح وسيكون . . .

Akhawia.net

العبودية ،ولكن

« في العالم العربي يستعبدني الشارع لانه يعرفني . يراقبني . يعاملني (بتهذيب اجتماعي) . . يغتالني .

هنا استطيع ان ارفع صوتي في وجه عامل المصعد وسائق التاكسي . استطيع ان اغازل حبيبتي في المترو .

استطيع ان اتشاجر واتسافه واعدو في الطرقات .

مجهول يتعامل بمجهول .

(تلك موهبتي الوحيدة) .

حين أعود وأحدق فيّ . . افرح .

لانني رجل عادي يتعامل مع العالم ببساطة .

ذلك هو الشعر » .

وكلمات الشاعر السوداني سيد احمد حردلو هذه انما تعبر عن نوع واحد من عبودية الفنان في وطنه ، وعن اقل (العبوديات) ايذاء وتفتيتا . . . فالاديب العربي المعاصر يتعرض في وطننا العربي لاكثر من محاولة استعباد واعية وغير واعية وعليه باستمرار ان يحافظ على (وعيه) وعلى التحامه الحقيقي ببقية المضطهدين .

فالوطن المتخلف تحكمة عادة سلطات غير متخلفة في فن الارهاب . . وهذه السلطات تعرف ان الكلمة المضيئة التي تحمل اهل الشارع وتطير بهم الى عوالم العدالة والحرية هذه الكلمة يجب ان تحارب او تدجن . . ولانه تصادف ان للاديب معدة ، تكون معدته وملحقاتها ـ جوع اطفاله وزوجته او من يعيل ـ سلاحاً مبدئياً . . . والا ، فهنالك (الكسف) الجزئي في مجالات الاعلام الرسمية وغير الرسمية . . . والا ، فهنالك الضغط المكشوف كالسجن ، وهو الاقل ايذاء للاديب عادة وهكذا فأديبنا العربي في بعض الاقطار العربية محكوم بالاعدام مع وقف التنفيذ فور صدور نتاجه الاول ! وعليه ان يختار عاجلاً او آجلاً بين الصمت ، او التكيف مع الظروف القائمة : ليكون اراجوزاً في بلاط التخلف .

والمفجع حقا ، ان اكثر الانظمة العربية الجديدة ، التي تحمل شعارات تقدمية ، ما تزال تعامل الفنان بالعقلية المتخلفة الرجعية نفسها والتي من المفروض ان الثورة قامت لتبديلها . . .

وكان الاديب مطالبا في الماضي بأن يظهر في ثياب المادح والمهرج في بلاط الحاكم ، وظل للاسف مطالباً باداء الدور نفسه ، مع تبديل طفيف في الديكور والكليشيهات .

Akhawia.net

والادب يستنزف من الانسان جهدا حقيقيا وطويلا اذا كان يريد النجاح بالمعنى الحقيقي : اي النجاح على صعيد الاجيال الانسانية القادمة ايضا لا على صعيد جيل واحد ، وبمقاييس نقاده وحدهم .

غربة واحدة تكفي . .

عن الغربة اتحدث ، وما حاجتي الى التقاط الامثلة القديمة من تاريخ سيرة الادباء الخالدين وعلاقة الرحيل بابداعهم واستمرارهم ، والامثلة حولي متوفرة ، والاسباب والدافع لا احتاج لاكثر من غمس يدي الى قاع نهر اعماقي ، لاخرج بكثير منها . .

وحينما افكر بلندن ، التقي بعشرات الوجوه العربية الباحثة عن شيء ما ، الهاربة من شيء ما . . وحينما اذهب اليها ، ونسير كلنا في الضباب قافلة من السنونوات الضائعة اللاضائعة لانني انا ايضا هاربة من شيء ما ، وباحثة عن شيء ما . . ولأنني . . . (ما جدوى ان اقول) . . يكفي ان اقول : اظل من رف السنونو الذي لا يملك الا ان يعود . . .

من ينسى

كلها ، الادمغة العربية والادبية هناك ، من مقيم ، ونازح ، وعابر سبيل ، وقادم بالصدفة . .

كلها ، لا ترحل حقا عن وطنها ، انها ترحل عنه لتحسن رحيلها اليه . .

والسنونو ابدا يعود . . .

والشاعر الحردلو ، الذكي البريء العفوي ، الوديع عادة ، اشتعل حماسا شرسا لما سألته ونحن جالسان على ارصفة نافورة ساحة البيكاديللي في تلك الامسية العجيبة المذهلة ، امسية سكبت فيها الطبيعة كل ما تملكه من سحر الالوان والظلال ساعة الغروب على مهرجان انساني لوجوه من الجنسيات كافة ، وبدا المكان احتفالا عفويا للعرق البشري على الأرض تعبيرا عن فرحته بالوجود ، (لن انسى ، تمنيت لحظتها لو استحيل والى الابد تمثالا في هذه الساحة) ، ولكنني فجأة ، تذكرت دمشق ، (دمشق يا دمشق من ينسى) وربما لذلك سألت سيد أحمد فجأة : والسودان ؟

رد بعذوبة :

والسودان ؟ ـ ما له !

ثم انفجر ؛ « شكرا غاده . .

كأنك غمست خنجراً فيّ كأنك دلقت النار في حلقي .

فجأة . تفتحت الشمس ونزل الصحو عندي .

Akhawia.net

فجأة . رميت امامي ملايين البيوت المضاءة بالحب والانتظار عبر غابات النخيل فجأة فجرت ملايين الاعين في قلبي .

اغفري لي . لا زلت افكر فيه بقلبي . فأنا فلاح ، تعرفين ، انا هنا لأتعلـــم وسأتعلم !وسأكتب فيه قصيدتي الاخيرة . وبعدها سأهجر الشعر » .

وانا ايضا . . .

Akhawia.net

القاهرة ٢٧/ ١٢/ ٦٨

سينما مريضة ومسرح معافى

القاهرة . .

متحفزة وغاضبة كحدقة عين محارب . . . غامضة ثرية باسرارها المعتقة ، كطقوس قبيلة وثنية تغتال آلهتها . . دامية ، وبريئة ، كقطة تأكل اولادها . . كريمة ، كنزف جرح مفتوح . . رتيبة ومخدرة ، كدخان نارجيلة في حنجرة تكلست احزانها . . متناقضة ، كأسنان منشار . . غالية . . غالية . . كأنها دمشق ، مدينتي .

القاهرة . . .

وفي مقابلة تلفزيونية هناك ، سألتني المذيعة ذات الابتسامة المرحبة السؤال التقليدي : كيف وجدت القاهرة ؟ . . . كنت اعرف انه من المفروض ان ارتدي ابتسامة مشابهة وادلي آليا باحدى الاجابات التقليدية : كويسة خالص . حلوة قوي . . هايلة . .

لم استطع . ظللت صامتة . احسستني ابدو غبية ومتحدية . . ظللت صامتة وفية لخواطري . . . انطويت عليها باصرار محارة مغلقة . . فقد هجمت الى عيني آلاف الصور والاصوات والروائح . . . انزلق داخل رأسي شريط احداث سريع لمدينة مرآة تعكس صورة عن الواقع العربي : فعل المجابهة ورد العدوان ، والحس بالخطر وبالخيبة على السواء . . . وتعكس صورا اخرى غامضة ليس من السهل التسرع بفك رموزها . .

القاهرة ؟ . . .

انتصبت داخل جمجمتي متاريس الآجر والطوب التي شيدت امام مداخل العمارات ، كي يتم استخدامها كملاجىء في حالة الغارات الجوية وغير الجوية . . . ومع ذلك كتب بخط رديء على تلك المتاريس عبارات مثل « توكلت على الله » ! . . .

سمعت صوت رئيس البلاد يتحدث عن الغم الذي من الطبيعي ان يصيب شعبه « شعب في حالة حرب وغير قادر على ان يحارب » ، فرأيت المصابيح تنطفىء في الشوارع الطويلة ، والتماثيل تنوح والدموع تهطل من عيونها الحجرية ، والقمر المتفتح على وجه النيل زنابق من ضياء يهاجر عنا الى اعوام لا ندري متى تأتي . . . والمسحرون يكسرون طبولهم وينكسون عصيهم . . . الاطفال يتمتمون لعنات غامضة ، ويرمقون الكبار

Akhawia.net

بتأنيب النظرة الاخيرة لمحتضر ، يرمي بها في وجه قاتله . . .

اردت ان اقول لها ذلك كله . . . ان اقول لها ايضا انني كنت انسى احيانا جمال الطبيعة الاخاذ في القاهرة . . . اتجاوز قشرة المشاهد وجلدها ، الى لحمتها الانسانية . . . واتسلل داخل شرايينها ، واوردتها ، والتصق باعصابها المتوترة ، والتقط كهاربها ولحظات صمتها الغامضة . . واخرج من ذلك كله باحساس بقعة ضوء تتحرك على مسرح كبير مشحون بالتحدي والرفض (النيلي) الهادىء . . لكنه مسرح يمكن ان يستحيل بين لحظة واخرى الى ساح (نيلي) مفاجىء الطوفان . . وان ثلاثة ملايين انسان على ذلك المسرح العظيم يهدرون في وقت واحد ، كل على طريقته ، « يا بلدي . . . » . . . بعضهم يصرخ بها بحكمة انسان وعى ابعاد الصرخة كلها ، وبحرقته . . . بعضهم يقلد الصرخة الاصيلة منساقا ببغائية عمياء . . بعضهم يدور حول نفسه ، بانهزامية درويش مختبىء في ظل هذيان نوباته الصوفية من تأدية واجب تستتبعه صرخة « يا بلدي . . . » . . .

« بلدي يا بلدي . . . » كل يلهج بها . . . وكل على طريقته . . .

تماما كما في اية مدينة اخرى ، مهددة بالطوفان ، في ذلك الجزء من الارض الذي شهدت بقاعه بزوغ شمس اولى حضارات الانسانية . . من المحيط الى الخليج . . . قارة الحزن والغيلان والاطفال المحروقي الخدود . . .

بلـدي يـا بلـدي

محمومة مدوية سمعتها تنطلق من « مسرح توفيق الحكيم » بالقاهرة ، عبر مسرحية للدكتور رشاد رشدي ، مستوعبة اكثر ابعاد الصرخة وكثافتها .

انها مسرحية (مصرية) بمعاني الكلمة كلها . .

بطلها هو السيد احمد البدوي ، المغربي المولد ، الحجازي الذي يتصل نسبه بجده الامام علي بن ابي طالب . المصري الاقامة ، حيث اقام في طنطا اماماً في التصوف والعلم ، واشترك في رد عدوان الصليبيين في موقعة حربية عند المنصورة عام ٦٤٧ هـ (أسر فيها الملك لويس التاسع ملك فرنسا) . . . ترى أهل مصر يقدسون الامام .

السلطان يجيء اليه للتبرك به . الامام يستحيل الى اسطورة . الاعداء يهاجمون مصر ، الناس يتكلون على (الله) وممثله (الامام) لرد العدوان ، مستشارو السلطان يقتتلون فيما بينهم من اجل السلطة . الفساد يسود البلاد . مصر ممزقة من الداخل وتعجز بالتالي عن صد العدوان الخارجي . القاضي العادل يموت فجأة بالسكتة قبل ان ينطق بالحكم بادانة المخربين . الجميع يهربون من ضعفهم وتخاذلهم الى اتكاليتهم على مظاهر

Akhawia.net

(الدين) ناسين جوهره ، وعلى (الامام) . . . ويهزم الجيش المصري ويضيع قسم من الارض فيخرج الامام من معتزله الى الناس مناديا للحرب ، ممزقا ملهوفا ، ولكن لا يستمع اليه احد ، ولا يراه احد ، اذ يكون الجميع مشغولين بالعبادة في مشهد للدراويش بطبولهم ودفوفهم وغيبوباتهم (الله الله الله ، يا سيدي الامام) . . . وعبثا يحدثهم . . . لا احد ينصت للامام واستغاثته لانهم مشغولون عنه في التسبيح بحمده ! . . مستشارو السلطان يتابعون بث الحشيش الفكري بين صفوفهم : الامام سيقتل الاعداء . . . السماء ستمطر حجارة من سجيل .

وتنتهي المسرحية ، بعجز الامام امام شعب مخدر بمفهومه الخاطىء للدين . . ومخدر باشياء اخرى كلها من بعض المأساة العربية الواحدة . . . . وتلك الحرب المزدوجة التي لا ترحم : حرب الانسان مع (المطلق) تحقيقا لتوقه الى الاقتراب من الحقيقة : الذات الالهية . . . وصموده امام قوة ما وراء الطبيعة التي يجهلها . . وحربه الاخرى ضد عدوان الطبيعة والبشر بصفته مواطنا ينتمي الى عصر معين وارض معينة . . فالمسرحية لا تنسى استعراض حرب الامام (الانسان) ضد شهواته ، وضد ملاذ الدنيا التي ترمز اليها (فاطمة بنت بري) . . . وحربه ضد الضعف البشري (الحمى) . . وحرب السلطان ضد حب التملك في ذاته . . . كلها معارك يعاني منها اي انسان واي حاكم في كل زمان ومكان . . . ونشهدها في اطار عربي محلي تكاد احداثه تكون معاصرة . . .

بل ان (التخلف) يكاد يكون الشخصية الثانية التي تشارك الامام بطولة المسرحية .

نرى التخلف في التفاف الناس على (الحاوي) . . . في تهافتهم على التلهي بالتفاهات . . . بالضرب في الودع . . بالسحر . . . بالرقص والتنبلة . . . بالزواج من اكثر من امرأة . . . بالتلهي بالتفاهات والهرب من مواجهة الواقع المرير . . .

والمسرحية ايضا تشير الى مأساة اخرى هامة يعاني منها عالمنا العربي ، ألا وهي الافتقار الى الفن الحقيقي ، الذي يلعب دور التوعية ، والفضح والادانة ، والشهادة . . . وقد وفق الكاتب الى حد مذهل في طرح هيكل تلك الفكرة المجردة بعد ان كساها بجسد ملائم من الاحداث الجاذبة للاهتمام والنابعة من صلب موضوع المسرحية في الوقت ذاته . . .

فبينما الارض تضيع ، وغزو الجراد (الاعداء) يأكل بيادرها واطرافها ، نجد الناس يتحدثون عن اي شيء الا عن مأساتهم الحقيقية . . . لقد أوكلوا بها الامام

Akhawia.net

والسلطان ، وانصرفوا لمراقبة احداث قصة عاطفية فردية تافهة تدور امام اعينهم . . .

وليست صدفة ان تكون تلك القصة التافهة موضوعا لفيلم مصري نجح ذات يوم نجاحا تجاريا على الصعيد العربي . . اتجاوز ذكر اسم الفيلم . . قصته كما تصورها المسرحية ، تدور حول (فطاطري) يبيع الفطير وزوجته الحسناء التي تساعده في عمله وصديقتها واسمها (زين ابوها) . . واهل البلد . . . يمر ابن الباشا فيعجب بجمال الزوجة ويختطفها ليعقد قرانه عليها !! . . .

وتهرب الزوجة (العفيفة) من الاسر . وتتنكر في زي رجل . تعمل اجيرا عند زوجها الفطاطري دون ان يدري ان خادمه الصبي هو زوجته التي بكي الليالي بحثا عنها . . . اما الحسناء الاخرى (زين ابوها) التي تشاركه بيع الفطير فيقع اسير سحرها ودلالها ابن بلد متزوج (الحاوي) ويرغم زوجته (ضاربة الودع) على ان تعمل معه كي يجمع (مهرها) ! . . . واخيرا ، وبعد ان تنشد (الاخت) المتنكرة بزي شاب (موال) حب (على عادة الافلام التافهة المفتعلة الحكاية) وبعد ان ترقص (الاخت) الاخرى وتهز ببطنها . . . تكون المفاجأة ! الصبي امرأة ، وهي زوجته . و (زين البلد) التي يريد ابن البلد الزواج منها ، هي شاب متنكر بثياب فتاة . . ويعيش الجميع بعدها في ثبات ونبات . وترقص القرية (على واحدة ونصف) ، و (هز يا وز) و (الأرض طارت) وغزو الجراد أكل البلاد . . . والناس يحكمون بالصمت على اي صوت يواجههم بمأساتهم لانه يفسد على سطحيتهم استغراقها في التفاهات . . التخلف هو البطل الآخر في المسرحية . . انه ايضاً الصوت الكامن في اعماق كل فرد يقطن تلك الأراضي المهددة من المحيط الى الخليج . . .

وكما يلعب (الابله) في رائعة (فولكنر) ، (الصوت والغضب) دور (صوت الانسان) ، وكما يعكس نواحه وخرسه مأساة الانسان امام قسوة الوجود وقسوة الآخرين ، كذلك يطلع علينا بين وقت وآخر رجل يمثل الانسان المصري ان لم اقل الانسان العربي ، رجل يعتبره الجميع مجنونا لانه يصرخ باستمرار مناديا (بلدي يا بلدي) رغم انه في بلده . . . لقد رحلت (البلد) عن اهلها وعن عصرها . . . انه غريب في بلده . . يحس بانه لا يعرف احدا . . وهو بالتالي لم يعد يعرف من هو . . انه بلا هوية . .

والستار الاخير يسدل على صرخته الملهوفة المفجوعة : « بلدي يا بلدي . . . » . . ومجنون البلد هو عاقلها الوحيد . . .

Akhawia.net

سينمـا ،يـا سينمـا

هنالك نهضة تتفجر في عروق المسرح المصري المعاصر بأصالة كما لم تتفجر في اي قطر عربي آخر . . .

وليست « بلدي يا بلدي » الا نموذجا رائعا للمسرح المصري الحديث حيث نجد مسرحيات من نتاج مبدعين مصريين .

١ ـ تعالج القضايا الوطنية في اطار من السخرية ببعض الاوضاع التي ادت الى الهزيمة مثل مسرحيات نعمان عاشور : « بلاد بره » . « النـاس اللي تحـت » . « عيلة الدوغري » . ومسرحية « المسامير » لسعد الدين وهبة وغيرها . .

٢ ـ القالـب المسرحـي فيهـا مصري من حيث تبني التقـاليد الشـعبية « كالموال الدرامي » واستيحاء « السامر الشعبي » قالبا دراميا للمسرحية كما في « الفرافـير »و«ليالي الحصاد » للدكتور يوسف ادريس و « آه يا ليل ، يا قمر » لنجيب سرور ،و « اتفـرج يا سلام » و « بلدي يا بلدي » للدكتور رشاد رشدي .

٣ ـ واستلهام التراث الشعبي القديم والملحمي مثل « الـزير سالـم » و « حـلاق بغداد » و « سليمان الحلبي » . وجولة في مسارح القاهرة تكشف عن جوانب اخرى من الخصب الفكري في مجال المسرح ، وما يثيره ذلك من جدل بناء .

اذ تعرض حاليا مثلا مسرحية « دائرة الطباشير » تأليف المسرحي العظيم برخت . . والجدل يدور حول ١٢ الف جنيه انفقت من اجل هذه المسرحية وحدها . .

وهنالك ايضا مسرحيات اخرى جيدة تعرض حاليا مثل « علي جناح وتابعه قفة » و « برعي بعد التحسينات » واخرى سيئة على ما فيها من جهد مثل « سيدتي الجميلـة » ـ نسخة عصر الخديوي ، وقد فقدت ابعادها الفكرية (البرناردشويّة) . . لكن المسرحيات في مجموعها تحقق خطوة الى الامام في تطور المسرح المصري . . هذا عن المسرح ، والسينما في واد آخر . . ما تزال تدور في فلك تفاهات (زين ابوها) و (شرف البنـت زي عود الكبريت) دون ان تطرح ـ كالمسرح ـ مأساة الشعب العربي مع (شرف الارض) قبل (شرف البنت) وغير ذلك من المآسي الملاصقة للهزيمة والتي يعتبر الوعي بها وطرحها جزءا من محاولة استكمال ملامح الصيغة الصحيحة للرد على الهزيمة .

« عالم مضحـك جدا » و « مراتـي مجنونـة جدا » و «شبـاب مجنـون جدا » هي الذرية الحتمية لافلام مسلسل التفاهة وهي اسوأ خلف لاتفه سلف ! .

واذا استثنينـا فيلمـين لمخـرج شاب مثقف وواع « حسـين كمال » هما

Akhawia.net

« البوسطجي » ، و « المستحيل » فاننا نستطيع (براحة ضمير) ان نقرأ الفاتحة في مقبرة الفيلم المصري الذي ولد ميتا واستمر ميتا عشرين عاما لان المتفرج العربي كان يرى ولا يبصر . .

ولكن عام ١٩٦٨ لم يعد يسمح بذلك . .

١٩٦٨ واعادة النظر

١٩٦٨ لم يكن عاما ككل الاعوام ، كان الصفحة الاولى في كتاب الرد على الهزيمة . . هزيمة الفرد العربي بأقسى مظاهرها في االنصف الثاني من ١٩٦٧ . . يصرخ بصمت ، « بلدي » ، وقد اذهلته المصيبة ، وشلت قدرة كتابه على استرداد انفاس ابجديتهم . . ولم يلتقط الجميع انفاسهم وافكارهم الا مع بداية ١٩٦٨ . .

عام ١٩٦٨ كان عام محاولة فهم اسباب الهزيمة وبالتالي مجابهتها ، وعلى كل صعيد . . عسكريا واقتصاديا وفكريا . وفي كل قطر عربي . .

وهكذا كانت مشاركة ثقافة ١٩٦٨ في المسؤولية امرا محتوما . . ثم ان الجماهير لم تعد تتسامح كثيرا في مستوى ما يقدم لها ، فالهزيمة التي تهدد (عيش) الانسان العادي ارغمته على محاولة البحث عن ذاته ووجوده في مرآة الفنون من مسرح وسينما وشعر . . وجعلته بطريقة ما يتقزز من الافكار والمستويات التي شاركت في هزيمته ، وفي تهديده بمزيد من الهزيمة والاذلال .

الجدية على كل صعيد

لذا ، لم تكن صدفة ان يمتاز النتاج الثقافي العربي ١٩٦٨ بالجدية . . وباقبال الناس على الدراسات حول (كاسترو) و (جيفارا) و (هوشي منه) و (الثورة العربية الكبرى في فلسطين) و (يوميات هرتزل) وكل ادب يكتب بالسكين مقاوما عبر الفداء (محمود درويش مثلاً) ومقاوما على اكثر من جبهة (غسان كنفاني) ونتاجه القصصي (عن الرجال والبنادق) ودراساته (في الادب الصهيوني) و (ادب المقاومة في فلسطين المحتلة) . .

المسرح . . ونسغ حياتنا

ولان المسرح انطلق من اسس واقعية عميقة الجذور في الواقع المصري والعربي والانساني ومنفتح في الوقت ذاته على التيارات العالمية ، لذا فقد نما نموا اصيلا ورفدته الهزيمة بمزيد من الرغبة في التحدي والمقاومة . .

ولذا ، كان من الطبيعي ان تسقط السينما وتعلن افلاسها ، لانها كانت منذ البداية

Akhawia.net

مزيفة ، مقلدة ، هجينة ، تحكمها اطماع المستغلين لسذاجة الجمهور . .

وهكذا من يزرع التفاهة ، يحصد الفشل .

واسدل الستار بانتظار دم جديد للسينما المصرية . . دم ، اسمه الثقافة ، يحارب تخلف مخرجها وممثلها ومطربها وارجوزها ومحترفي النواح وهز البطن والارداف ومطلقي الخطب الاخلاقية .

وربما كان « نادي السينما » الذي اسس مؤخرا وتعرض فيه نخبة من روائع الافلام الاجنبية والتجريبية المدرسة الضرورية لتثقيف (بتوع السينما) . . وحبذا لو نظمت دورة تدريبية ارغامية لكل من له علاقة بالسينما هناك ، من المخرج والكومبارس الى قاطع التذاكر ! .

المقاومة والتفسخ

هل كان من الضروري ان يأتي علينا يوم كالخامس من حزيران كي نلحظ بأن الارض تحت اقدامنا مستنقع رمال . هياكلنا تتداعى . بيوتنا نكاد نفقدها . آلهتنا لم تعد تقنعنا . الجراد يأكل بيادرنا وعيون اطفالنا . الجراد يزحف علينا على طول حدودنا . الجراد يتوالد من داخلنا ايضا . من ادمغتنا ، من شاشات السينما لدينا من اغاني مطربينا . من اقلامنا . من اذاعاتنا .

هل كان من الضروري ان يأتي يوم كهذا كي نصرخ بذعر « بلدي يا بلدي » ونلتف حول « مسرح المقاومة » ونشيح باشمئزاز عن « سينما التفسخ » ، وكي نبحث عن اية كلمة محفورة بالسكين ما دام فيها صورة من صور استكمال صيغة الرد على العدوان (وعلى عدوان التخلف على ذواتنا) ، وكي ندين كل تفاهة علنية اسميت ظلما وعدوانا (فنا) ونكافحها بشراسة لانها من بعض ذلك الجراد ، ومن بعض فئران (التخدير) التي قرضت على مر القرون جذورنا في تربة اصالتنا وتاريخنا ؟ . . .

ايتها القاهرة ، بلدي يا بلدي ، يا دمشق .

Akhawia.net

الاسماعيلية ـ السويس ـ ٢٩/ ١٢/ ١٩٦٨

فدائيون خلف الكواليس

ذلك الفجر الربيعي الجميل ، وانا اغادر القاهرة ، بسيارة مركز الصحافة في وزارة الارشاد ، لتقلني الى الخطوط الامامية في السويس والاسماعيلية ، لم اكن ادري انني سأجد نفسي بعد اقل من ساعات وسط ساحة قتال . . وسط القنابل المسعورة الانفجار ، وازيز الرصاص ورائحة النيران والهشيم . . .

ولم يدر بخلدي انني سأقضي عشرات الدقائق في قبو احد الملاجىء ، ـ وتماما كما يحدث في افلام المغامرات ومسلسلات الحرب ـ ارهف السمع للانفجارات وانا اتساءل : ترى في جسد من استقرت تلك القذيفة . . وهل تكون القذيفة التالية من نصيبي ؟ . .

لكن شاءت الصدفة ، ولأقل حظي غير العاثر ـ صحفيا ـ ، ان اشهد معركة من المعارك شبه اليومية لعدوان اسرائيل على الاسماعيلية والسويس وغيرها من المواقع المصرية ، ورد القوات المصرية عليها . . واذا كنت قد وجدت فيما حدث (مفاجأة) ان لم اقل ـ مغامرة ـ فان مثل هذه الاعتداءات صارت امرا مألوفا لاهالي تلك المنطقة ، امرا لا يثير الخوف او الذعر وانما يتصرفون ازاءه بهدوء ووعي كما لو كانوا يشهدون (تجربة غارة) ، لا غارة حقيقية بالذخيرة الحية القاتلة . .

الريف الطيب ، والحرب

الى الاسماعيلية . والسيارة تبحر بي وسط بحر شاسع من الخضرة والخصب . النخيل يمتد جسورا بين زرقة السماء وزرقة الترعة . الوجوه الطيبة تملأ الحقول ، تطل من خلف اشجار المانجا وضحكات الاطفال تغسل اشرعة الزوارق الصغيرة . . واكوام من الخس والبرتقال تواكب جانبي الطريق . كانت هنالك طيور بيض تقفز فوق سطح الماء ، واخرى تحلق عاليا حتى تختفي وسط سحابة كسول لدخان مصنع ما . . . لوحات اليفة تنبض براءة وصفاء كانت تنزلق واحدة تلو الاخرى على عيني وتغسل عنهما اية صورة للعنف والقسوة والبشاعة . .

وحتى حينما حدثني مرافقي النقيب عن عدوان الصهاينة على بيوت المدنيين وحقولهم ، كان من الصعب ان استوعب معنى كلمة (عدوان) بكل ما فيها من (بشاعة) ومن اساءة للقيم الانسانية وهدر للحب أي الخير اي الجمال ، كان من الصعب

Akhawia.net

ان أعيها بكل فظاعتها وسط هذا المهرجان من الحب والخير والجمال الذي غزا به الريف المصري حواسي طيلة الطريق الى الاسماعيلية . ظللت انطق بوحي مما أرى ، وكان يرد بوحي مما يعرف .

قلت له : هذه طيور (فري) . هل الصيد مسموح ؟

قال : الصيد ؟ أجل . فرقنا القناصة توالي صيد (ضبلطهم) عن بعد . اننا (نصطاد) لندافع عن بقائنا .

قلت : كثيرة هي ابراج الحمام في الريف .

قال : كثيرة هي ابراج المراقبة الراصدة لتحركات الاسرائيليين المريبة . . .

قلت : هل يصطادون السمك في الترعة ؟

قال : وفي بحيرة التمساح ، والبحيرات المرة عند القنال . . . ورغم قواربهم الحربية التي تعترض زوارق صيادينا الطيبين .

ويصمت . كأنه قرر ان يترك ، مشاهد الاسماعيلية والسويس تروي لي اية مأساة تشهدها تلك الارض الطيبة .

وتتوالى اسماء مختلفة لمشاهد أليفة ريفية متكررة : يلبيس ـ العباسية ـ الزقازيق ـ التل الكبير ـ اسوار ـ قصاصين ، نفيشيه ـ ونتوغل في الدلتا الشرقية حتى الاسماعيلية . . .

الاسماعيلية أم مدينة الاسطورة العربية العتيقة ؟؟ . . يا لهول ما ارى . . .

كان يا ما كان . . . تقول الاسطورة : كانت هنالك مدينة سعيدة ، اصابتها لعنة ساحرة شريرة ، مست كل ما في المدينة بعصاها فتحجر الجميع . . . وصمتت الاصوات . . . وتوقفت الحياة ونما العشب على اسوار البيوت وفي حدائقها . . . وغطت الطحالب نوافذها الموصدة واقفرت السوق واغلقت ابوابها . . . واختفى اطفالها وقططها وانطفأ الضحك والنجوم .

هكذا بدت لي الاسماعيلية للوهلة الاولى . . .

شوارع مقفرة . دكاكين موصدة . بيوت مهجورة لا أثر للحياة فيها . من وقت الى آخر تمر بي سيارة او عربة تحمل اثاث بيت ما ، ووجوه شاحبة النظرات ترافقها او تواكب انحسارها . . . لا ضجيج في المدينة ، وانما صمت حزين متوتر يتفجر من احجار البيوت والارصفة . . . صمت يروي ببلاغة مأساة اهل المدينة المهجورة . . .

يقول مرافقي باقتضاب : كان يقطن هذه المدينة ٣٤ الف مواطن . صار عددهم

Akhawia.net

الآن ١٤ الفـاً ، واكثر من تبقى في طريقه الى النزوح !

ولم اكن بحاجة الى الشرح والارقام لافهم . كان كل ما في المدينة ينطق . يهذي . يؤنب . كانت آثار القنابل قد تركت في جدران كل بيت بصمات اظلافهـا ، وهدمـت بعضها الآخر بأكمله . . .

شاهدت بناء من خمس طوابق وقد انهار بأكمله ، وبقيت منه لوحة معلقة على بقايا اساس البيت بين اصابع الحديد والاسمنت المجرحة العارية وقـد كتـب عليهـا (نـزل الشامي) . . . واغمضت عيني هولا فقد قفزت اليهما صور عشرات من نزلاء الفنـدق الذين ربما كانوا ينامون بسلام حينما انسكب على رؤوسهم شلال النار وشظايا السقف والجدران . . . اكثر البيوت ـ بلا مبالغة ـ كانت تحمل بصمات القصف اللاانساني الذي تمارسه اسرائيل ضد بيوت المدنيين ومصانعهم ومعابدهم . . .

امتلأ حلقي نقمة على (اعلامنا العربي) . الفرد العادي في العالم العربي لا يعرف شيئا عن حقيقة ما يدور هنا . . . . واكثر اعلامنا العربي ما يزال يعطي العالـم صورة خاطئة عنا ويظهرنا بمظهر المعتدين على الحمل المسكين اسرائيل (اسرائيل حريصـة على هذه الصورة طبعا لتكسب عطف الرأي العام العالمي) . . . اننا نملأ الدنيا صراخا كلما نسفنا لهم دارا او مخزنا (وهم يشاركوننا الاعلان عن ذلك والصراخ) ، ونتكتم على مآسينا ولا نذيع اخبارها الحقيقية ـ ربما بحجة المحافظة على الروح المعنوية لشعوبنا . . .

صرت مؤمنة بأن الاعلام العربي بصورة عامة مطالـب في هذه المرحلـة بالـذات بالكف عن (الخطابية التقليدية) ونغمة التبجح والافتراس الكاذب التي الفنا مواجهـة مآسينا بها . . . (المحافظة على الروح المعنوية للشعوب العربية) صارت حجة باطلة فما دامت هزيمة الخامس من حزيران لم تحبط من عزيمة الشعب العربي ، وانما استطاع ان يتجاوزها ، صار من الضروري ان لا يكرر الاعلام العربي احد الاخطاء التي قادت الى الهزيمة : « كاموفلاج » الاعلام في الداخل وقصوره و (عثمانيتـه) في الخـارج . ان اي انسان في أي مكان وأي عصر يشهد ما اصاب المدنيين من سكان هذه المدينة ، لن يملك الا ان يستنكر بشاعة العدوان الاسرائيلي وتطاوله على ابسط المبادىء الانسانية التي تعـارف العالم عليها واعتبرها الفرد المعاصر من بدهيات الوجود الانساني .

الـزمن الضائـع

ساعة المدينة التي تتوسط الاسماعيلية كانت متوقفة . عقاربها ماتت على احرف تشير الى الثالثة والربع (تراها ماتت نهارا او ليلا ؟) وسألت النقيب الآخر الذي انضم الينا في

Akhawia.net

الاسماعيلية : هل ماتت ليلا ام نهارا ؟

قال دون ان يسأل (من) هي التي ماتت : لا فرق . انهم يبدأون قصفهم ظهرا أو ليلا أو مع الفجر . . . أم انك تظنين انهم يراعون مواعيد (الزيارات) !! . . .

ساحة المدينة كانت ايضا ميتة ككل شيء ، او هكذا خيل إليّ في البداية ، وانا ارى كل شيء خاويا ، ورصيف موقف الباص لا يحمل اي راكب ولا يمر به أي باص وتقبع فوق احجاره بصمت قطة حزينة العينين . . .

ومرت بي قافلة جديدة من سيارات الاهالي النازحين محملة بأثاثهم . (قفزت الى عيني صورة النازحين الذي شاهدتهم منذ عام في الاردن يعبرون جسر الملك حسين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية . أية مأساة كان النزوح ، اي خطأ وأية جريمة) . . . قلت : عشرون الف نازح من هذه المدينة . هذا شيء مرعب ، من المفروض ان يبقى فيها اهلها ، وان يدافعوا عن حقهم فيها .

قال : « هذا نزوح (مرحلي) تفرضه طبيعة المعركة . فالعدو يوالي قصف المدينة بالمدافع البعيدة المدى، والاهالي العزل لا يملكون في هذه الحالة سوى التساقط تحت امطار القنابل واحدا تلو الآخر . ان انسحاب المدنيين لا يعني استسلام العسكريين مع ذلك ، هنالك كثيرون ممن قرروا البقاء بأي ثمن » . . .

وكان ذلك صحيحا . . . فأمام دكان مخلوعة الباب ، وقد تقعر حديدها الى الداخل بسبب (التفريغ) في ضغط الهواء الذي ولده انفجار لا بد أنه كان مروعا ، قبع بائع متجول ، تلتمع عيناه الرماديتان ببريق متحد صامد . قال : « لن اغادر داري وارضي ما دمت حيا سأدافع عنها حتى اموت » . . . مثل هذه العبارة سمعتها من كل من لقيته . . . في الكنيسة المارونية ، كان (أبونا) يصلي وحيدا صامدا . لن يغادر الكنيسة رغم آثار القنابل في احد جدرانها . سيبقى . انه مؤمن بإله هذه الارض وبشعبها . سيبقى ، رغم الجدران المثقوبة في الدار المقابلة ، والتي تطل عبر فجوتها صورة قديس معلقة داخل الغرفة تنظر الينا بصمت معبر مرعب ، وتحف بها بقايا اثاث الحجرة ولوحاتها . . . (لا بد ان نزوح الاهالي هو جزء من خطة للدفاع منطقية وعقلانية وبعيدة عن الخطابة . . . المدني لا يستطيع ان يحارب مدفعا ببندقية . هذا عصر التكنولوجيا ، والحماس وحده لم يعد كافيا) .

ومع ذلك فعلى مشارف الاسماعيلية لم يفت كل عابر ان يلفت نظري الى انه صامد . وحتى ركاب سيارة (نازحة) استوقفتها ، لم يفتهم ان يؤكدوا لي بعيون تقطر

Akhawia.net

حقدا وتحرقا للمواجهة : سنعود .

المصانـع أيضـا . .

شركة نصر للسيارات . مصنـع الالبـان . فنالتـكس . مصنـع الاسماعيلية للترانزستور . . . وغيرها من المصانع كانت هدفا لقصف المدفعية الأسرائيلية .

ورغم كل شيء لم يتوقف العمل فيها ، ولن . . . عمالها ، من بعض فدائيي هذا الوطن العربي : فدائيون وراء الكواليس ! . . . اذن ، ساعة المدينة لم تمت ، تحجرت برهة ، ريثما ينجح فتى الاسطورة الفارس في فك رصد الشر عن المدينة .

السويس ترحب بكم

لوحة كبيرة عند مفترق الطرق تقول : السويس ترحب بكم ! ولم أكد اقرأ العبارة حتى انفجر شلال من قصف مدفعية ما . (يا الهي ! اي ترحاب وأية تحية) . هنـالك غارة . الكل يركض ليؤدي عمله المرسـوم له . الجنـود يأمروننـا بايقاف السيارة بعيدا (حذار من تجميع السيارات في مكان واحد والا كانت هدفا مغريا للقصف !) . جنود يتحركون بسرعة ونظام . مدنيون يركضون باتجاه الملجأ والقصف يزداد عنفا وضراوة . الارض ترتجف تحت الاقدام . هنـالك طلقـات متقطعـة اقـل عنفـا . الرصـاص يمـلأ الفضـاء . رصـاص حقيقـي . ربمـا للمـرة الاولى لا اسمعـه يلعلـع بمناسبـة عرس او (انقلاب) او جناز . . . هنالك محطة بنزين نبعد سيارتنا عنها . . . يقودني المرافق نحـو بناء صغير عليه لوحة (نقطة مرور العوايد) . اهبط درجا ضيقة الى الملجأ . الملجأ قبـو ضيقة فيها عشرات من الاطفال والنساء وبعض المسنين . اشعر بالذنب وبالخجل . تدخل خلفي امرأة وقد لفت نفسها بعباءة وغطت وجهها ، وهي تتعثر بأطراف ثوبها (التقليدي) وتكاد تقع على الأرض (مكاني ليس هنا. النساء كلهن، وهذه المرأة التي تتعثر بأهداف « الفضيلة المحتشمة » يد الرجل التي تساعدها يجب ان تكون طليقة تحمل بندقية . ويدها ايضا) . . .

اجلس في الملجأ والقصف يهز الارض . . . يقول مرافقي مطمئنا : هذه مدفعيتنا ترد عليهم .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ من صوت الطلقة . . . الطلقة التي تهز الارض وتخيفك هي الانفجار الـذي يولده انطلاق القنبلة ساعة اطلاقها . . .

(اذن حياتي وحياتهم في خطر . اذن من الممكن ببساطة ان يتوقف كل شيء الآن .

Akhawia.net

يا لوحشية ما يدور . هنالك فرق مذهل بين ان نتخيل المواقف وبين ان نعيشها ، بين ان نقرأ في جريدة الصباح عبارة « تجددت الاشتباكات » او نسمعها في الترانزستور بينما نسوك اسناننا ، وبين ان نعايش الاشتباك الحي حقا) . . .

هبط الى الملجأ عدد من الشبان يبدو من ملابسهم انهم من العمال يقودهم ضابط يرغمهم على الدخول . . . انهم لا يريدون الجلوس في الملجأ . . . لم تعد الغارات المتكررة تخيفهم . . . يجلسون ، ويملأون جو المكان مرحا . يطردون اشباح الموت والذعر . لم اسمع طيلة حياتي (نكتة) مصرية اصيلة وفكاهة ذكية كالتي سمعتها في الملجأ ، بينما القصف يدمي آذان السماء . . .

بعد قليل دخلت جماعة اخرى الى الملجأ بهدوء . بهدوء رجل يدخل الى المقهى . بروتينية مدمن على السينما ، بلا مبالاة رجل يتثاءب .

قال لي كهل تصادف ان جلست الى جانبه : لقد اعتدنا غاراتهم . صارت من برامجنا اليومية المألوفة . . لكن ذلك لن يدوم طويلاً . . . القصف يهدأ . يتفجر ثانية . سألت أحدهم : كم ستطول الغارة ؟ (سؤال سخيف طبعاً ، لكنني كنت بحاجة لأن اقول اي شيء) . . .

رد بدعابة حلوة : مين يعرف . . . يوم . . . اثنين . . . سنة . . سنتين . . . جرى ايه يا بنت ! . .

أغمضت عيني لارى اعماقي التي كانت تغلي ثم تهدأ لتتبلور فيها اشياء واشياء . . .

انزلق داخلي شريط سريع لايامي . . بوضوح ، بصفاء لم اعرفه منذ اعوام وجدتني اعي احداثها . . . حقائق طالما دفنتها في داخلي في اهرامات التجاهل ، عادت تتضح كما يخرج المارد من القمقم المسحور . . . لم يكن دماغي قط قادرا على المواجهة وعلى الفهم والحياد كما كان في تلك اللحظة بينما جمجمتي مهددة بشظية تطيح بها وتمسح كل شيء ربما الى الابد . ولم أشعر قط بمعنى الحرب وبمعنى الحياة الا وانا مهددة بفقدها .

ما تزال الشمس تشرق

لا ادري كم من الوقت انقضى . المرافق العسكري اختفى (ربما ذهب يقاتل) . قلت لمرافقي الآخر المدني : اريد ان اخرج ، وان ارى ما يدور ، واكتب . قال : انا مكلف بالمحافظة على سلامتك ، لا استطيع السماح بذلك .

عدت اغمض عيني لارى بوضوح (رأيت تلال الحمة والقنيطرة في وطني سوريا .

Akhawia.net

القصف . سقطت الارض . لا . اغرس اظافري في تراب ارض الملجأ ، ويسري في اصابعي ذلك الجوع الى الامساك ببندقية) .

هدأ القصف فجأة كما بدأ . الساعة تقول ان اكثر من ساعتين قد انقضتا . نغادر الكهف . ما تزال الشمس تشرق . تضيء الحقول ، تنعكس على صف من الابنية ـ المساكن الشعبية ـ التي تبدو فارغة من السكان تماما . وخلفها نار مشتعلة ودخان كثيف . يقول احد الشبان : الزيتية اشتعلت .

دقائق . احدق في الشمس التي فشلوا في اغتيالها . . احدق في عشرات العمال يعودون الى مراكز عملهم بهدوء ، بوجوه لفحها التصميم والغضب المكبوت (هؤلاء الرجال كان القصف يبتغي تكويهم هرما من الجثث والاشلاء . . . اية وحشية !) . . .

السيارات تعود الى الحركة . المرافق الضابط يعود الينا . يقول لي : لا خسائر في الارواح . وحدة من وحدات الزيتية كما ترين قد شبت النار فيها . هذا كل شيء . . . كان رد مدفعيتنا عنيفا . . . وقناصتنا كان صيدهم موفقا . . .

ـ اريد ان ارى المدينة . . ماذا حدث . . .

من مركز (العوايد) يأتي الينا العريف ويقول : هناك اوامر باعادة الصحفيين حرصا على حياتهم . . .

واعادوني ، ولم يدروا انني مت اسفا وحزنا وعارا . . . ان يدور ذلك ، وان اكون عربية ، وان لا اقاتل . . اية مهزلة .

لوكاندة ناصر للنوم

في طريق العودة ، دار نسفت للتو وما زالت جدرانها تتابع الانهيار . . الناس يركضون صوبها ، يساعدون اهلها على الخروج . . . يبدو انني الوحيدة المذهولة هنا . . . لقد ألفوا لعبة الموت . . . ولكن الشعب المصري اليوم نمر جريح . . جريح الكبرياء . . .

نتابع العودة . . . احاول ان اتلهى بقراءة اللافتات كلها . . . اقرأ لافتة على باب فندق « لوكاندة ناصر للنوم » . . . واجدني انفجر ضاحكة فجأة ، بأعلى صوتي ، وبعنف ، حتى ظن مرافقاي ان بي مسا من الجنون المفاجيء . . .

يسألانني : ماذا جرى ؟ أضحك بكل ما في صدري من مشاعر متناقضة حبيسة ومخاوف مجهضة . . .

ـ ست غادة ، جرى ايه ؟ . .

Akhawia.net

- « لوكاندة ناصر للنوم » ، يا للتسمية الطريفة . . . تسمية الاشياء بأضدادها . ناصر ، والنوم ؟ يا الهي ! جاء هذا الرجل الكبير لينتزع نوم اهل الكهف من عيون البشر والارض العربية . . . جاء ليحرض على الثورة ضد النوم والاسترخاء والعبودية . . .

منذ جاء، والوطن العربي كله لوكاندة لا تعرف النوم، وانما تحاول اليقظة الكاملة فكريا وانسانيا لتنهض على قدميها وتدافع عن بقائها . . . « لوكاندة ناصر للنوم » ! . . . واشعر بحزن غامض لا ادري له مبررا !! . . . ترى كم من اهل لوكاندة العروبة فهموا رسالة ناصر الحقيقية ؟؟ . . .

Akhawia.net

٤/ ٤/ ٦٩

. . . وبلغ الجرح سن الرشد

طويت جريدتي ، وهمت على وجهي في شوارعك يا قاهرة . . يا افريقية الغموض والبراءة ، كدغل استوائي . .

يا متوترة ، كعضلات ملاكم في الحلبة . .

يا مشرعة الانياب ، كلبوة اغتال الصيادون احد اشبالها . .

يا نابضة ، كتفجر دم شريان قطع للتو . .

يا مدينة الثأر . . كل ما فيك يقرع طبول الحرب . . كل ما فيك يشحذ سكاكينه وذاكرته واحقاده وكبرياءه الجريح . .

القاهرة . .

كل ما فيك يقرع طبول الحرب . . في السويس ، في الاسماعيلية ، كانت المدافع لا تهدأ . . وطلقات النار تتلاحق حتى تأكل كل طلقة صدى الطلقة السابقة . .

وحينما عدت اليك يا قاهرة ، وجدتني ما ازال في ساح المعركة . .

كل ما فيك يقرع طبول الحرب . .

كل ما فيك يشكل امتدادا للجبهة . . عبثاً ينسى فيك الانسان العربي انه مهدد ، ومطالب باداء الواجب . .

***

مصابيح الشوارع مطلية بالدهان الازرق (مصباح النكتة المصرية يضيء - يقول الرجل بينما يدخن سيجارته لرجل آخر يدهن اضواء سيارته باللون الازرق : والنبي تدهن لي رأس السيجارة الوالع بالازرق ، قبل ما تبتدي الغارة !!) . .

القاهرة غارقة في اللون الازرق الشاحب . . مصابيح البيوت والشوارع ، والمخازن ، كلها تنزف ضوءا رمادي الزرقة ، شاحب الحزن ، للونها الخافت صوت نواح صفارات الانذار ، للونها الخافت رائحة حريق وهشيم ورماد . .

اكياس الرمل تغطي مداخل الابنية . . اكياس الرمل تغطي مداخل العيون . . المتاريس في الشوارع ، وفي النظرات ، وفي الصدور . .

Akhawia.net

ورياح الخماسين تهب . . حارة ، غبارها يعمي العيون . . تهب كسحابة من النار والدخان في ارض المعركة . .

واهرب الى السينما . . وادرك ان الهرب اضحى مستحيلا ، فقد كان اول مشهد على شاشتها هو تنبيهات الى المواطنين عما يتوجب عليهم القيام به لضمان سلامتهم في حال وقوع غارة جوية !! . . اركن سيارتك . اطفىء لفافتك . سارع الى اقرب ملجأ . لا تستعمل الترانزيستور . في حال انفجار قنبلة انبطح الى جانب الرصيف وغط رأسك بذراعك . .

واغطي رأسي بذراعي ، واهرب من السينما قبل بدء الفيلم . .

اعود الى ذاتي في شوارعك الزرق النابضة المتوترة يا قاهرة . .

فيك يستطيع الانسان ان يخلع ثيابه لكنه لا يستطيع ان يخلع رأسه . .

فيك يصبح لكل خبر مذاق آخر . .

فيك يا ساحة الحرب ـ مع وقف التنفيذ ـ يصبح الفداء حلا لا مفر منه !

فيك اشعر اكثر من اية لحظة مرت ، ان العالم العربي بحاجة الى من يقول الصدق في كل لحظة ، وبأي ثمن ، ولو اتهم بأنه يهذي . . فلأهذ . .

* * *

جريدتي التي طويتها اقلب صفحاتها من جديد . لن اصمت لن اهيم على وجهي . كل ما فيك يا قاهرة يرغمني على اداء واجبي : ان اقول الحقيقة بأي ثمن . . وسأقول اشياء لا تقال ، وليقولوا انني اهذي .

* * *

اقرأ خبرا عن الفدائيين العرب . يقول الخبر : ان مدفعا رشاشا لاحد الفدائيين اسقط طائرة ميراج !! . .

لا . لا .

هنالك من يجب ان يقول لا لموجة المبالغة التي صارت تصبغ اخبارنا عن العمل الفدائي ، حتى كدنا ان نقول : العمل الفدائي (صلى الله عليه وسلم !!) . .

العمل الفدائي هو اصلا بذرة الصدق التي نبتت من جذور الاصالة العربية في تربة الهزيمة والعار . .

العمل الفدائي هو اصلا العمل الوحيد الصادق الذي تبقى لنا . . فكيف نزيف اخباره . . ونهولها . . ونستغلها . . المتاجرة بالعمل الفدائي بحجة ارضاء الجماهير

Akhawia.net

جريمة .

العمل الفدائي هو الثمرة الوحيدة (الصادقة) للهزيمة ، فكيف نعالج قضاياه (بزيف) ؟ . .

* * *

يا قاهرة . .

كل ما فيك يقول انك تعين جيدا ان الحرب لا مفر منها . لا لك وحدك ، وانما لنا جميعا ، نحن الذين نقطن ارضا دق في صدرها لغم اسمه اسرائيل . . كل عاصمة عربية لن تملك الا ان تدرك عاجلا او آجلا انها قاهرة اخرى . . يا دمشق . . يا بيروت . . اصبغي مصابيحك بالازرق . . كل مدينة عربية قاهرة . .

* * *

نيسان في بيروت . لذا يستعد ابناء الطبقة التي يستحم افرادها بماء ايفيان ويغسلون سيارتهم بالشمبانيا للاحتفال بالربيع باجراء حفلة « نيسان في بيروت » . .

سيخرج (نجوم المجتمع المخملي) على طبيعتهم في الحفلة . . سيخلعون اقنعتهم اذ سيغنون ويرقصون ويهرجون ، سيلعبون دور مطربات وممثلات لليلة . .

الشاب الذي نظّم الحفلة خبيث وذكي . . لقد (حك على جرحهم) فطلع عليهم بفتوى هي ان ريع الحفلة للاعمال الخيرية ـ ربما الفدائية ! . . .

ما كان الخبر ليهزني كثيرا لو لم اقرأ الى جانبه خبرا آخر عن الذكرى الواحدة والعشرين لمذبحة دير ياسين التي يتصادف حلولها مع سهرات نيسان في بيروت . .

بيروت يا (قاهرة) شئت ام ابيت . . يا غالية . . حذار من رياح الخماسين فقد صار عمرها واحدا وعشرين عاما !! . . وبلغ الجرح سن الرشد .

* * *

يا قاهرة . . اتابع قراءة جريدتي يقولون انهم يحتفلون بعيد الام . . يبكي الاطفال الايتام ، لان المناسبة تذكرهم بأنهم بلا أم . .

ايها الشعب العربي من المحيط الى الخليج . الام الحقيقية هي النظام . . النظام هو مجموعة مؤسسات (الاب وحده لا يكفي) . .

أيها الشعب العربي . . يا يتيم العصر . . فلنبك كلنا . . يا قاهرة . . علمينا انشودة حنان . . اغسلي وجوهنا التي شققها الضياع بشلال يقين . .

يا قاهرة . . نحن ايتام العصر . .

* * *

Akhawia.net

وبعد ،

هل تستطيع يا اخي العربي ان تقرأ جريدتك في ضوء المصباح الازرق في القاهرة ، دون ان تثور ، وتهذي ، وترفع الى القاهرة اغنية ، رقيقة كحد خنجر ، ثائرة كطبل افريقي يقرع في دغل ناء منذ قرون . .

اغنية هي من بعض انشودة الصمت في الحقول قبل بدء المعركة ؟ ! . .

Akhawia.net

القاهرة ٢٨/ ١١/ ٦٩

اهل القرية كلها يبدعون فناً

هاربان من مدينة الدمار/ ووجهها الأصم كالجدار/ تصوري لا يصمتون في الاصيل لا يبهجون للصباح في رؤى موكبه الجميل/ لهفي عليه فوق زحمة الرصيف كقشة في موجة المخيف/

« للشاعر جيلي عبد الرحمن »

والمدينة في نظر الفنان كائن خرافي ينخر اعصابه كما ينخر نقار الخشب في احشاء السنديان . . . المدينة ، يراها الفنان وجها اصم كالجدار . . . واهلها قافلة من المتكالبين على الدنيا ، يثرثرون في محافل البيع والشراء ، ولا يصمتون حتى لحظة الاصيل حزنا على موت نهار ، وربما صلاة امام جمال الغسق وجلاله . . . والصباح في المدينة حادث لا يتوقف احد لحظة ليرقبه ، وانما يتابع الجميع ركضهم المسعور على الارصفة ، ويمزقونه كريشة في موج الاحذية المتلاطم . . .

الفنان عدو (للمدينة) . . وهذه العداوة ليست سرا ، وانما نجد كثيرا من الفنانين من شعراء وموسيقيين ورسامين قد عبروا عن هذا العداء الذي يتراوح بين الرفض المطلق بالعودة الى الطبيعة (كما هي الحال لدى الشعراء الرومانسيين) ، او بالبقاء في المدينة ومحاولة التكيف معها عبثا ، تلك المحاولة التي تقود الى نقدها بشراسة احيانا ، (كما فعل شتاينبيك في رائعته «شارع السردين المعلب») ، وكما في ديوان «مدينة بلا قلب» للشاعر العربي عبد المعطي حجازي (وديوان « غابة الحجارة » لرفيق خوري التي يقصد بها بيروت) والى الانهيار العصبي بصمت . . وربما الانتحار كما فعل « فيتز جيرالد » معاصر همينغواي . . .

وربما كانت هذه العداوة التقليدية بين الفنان والمدينة هي السبب الاساسي لوجود حي خاص بالفنانين في كل مدينة ، يهربون اليه مثل « حي مونمارتر » في باريس مثلا ، وحي « غرينيتش فيليدج » في نيويورك . . .

والواقع ان حي مونمارتر في باريس لم يكن قبل نصف قرن سوى ضاحية باريس التي (هرب) اليها الفنانون من زحام المدينة . . ولم تلبث باريس ان اتسعت حتى

Akhawia.net

صارت ضاحية مونمارتر على رأس التلة جزءا من المدينة ، لكنها ظلت جزءا متمردا ، يحكمه الفنانون ، ويزرعونه بلوحاتهم واغانيهم وتماثيلهم وحاناتهم وقوانينهم الخاصة بالحب والحرية . . .

و « غرينتش فيليدج » في نيويورك كانت ايضا « قرية غرينتش » المستقلة في ضاحية نيويورك والتي (طفش) اليها الفنانون من ناطحات سحاب نيويورك التي تغطي وجه السماء ، وشوارع السردين المعلب فيها ، ولكن نيويورك اتسعت حتى صارت قرية غرينتش ضاحية من ضواحيها ثم حيا من احيائها لكنه حي يحكمه الفنانون ويمثل هناك ما تمثله مونمارتر في باريس . . .

وربما كانت قرية « الحرانية » التي تبعد عن القاهرة حوالي اربع كيلومترات والتي يقطنها اليوم بعض الفنانين المصريين الذين يتكاثرون بسرعة وتزداد هجرتهم اليها هي النواة الاولى لمونمارتر القاهرة . . . مونمارتر ، ولكن ليس على الطريقة الباريسية السارترية ، ولا على الطريقة الاميركية الهيبية ، ولكن على الطريقة المصرية الاصيلة العريقة الجذور في الحضارة الفرعونية ، والممتدة الفروع في الحضارة العربية ، والمعبرة عن روح الثورة الحالية وروح الحضارة العتيقة الخالدة . وقد لا تمضي اعوام الا وتتسع القاهرة وتصبح (الحرانية فيليدج) حيا من احيائها بعد ان كانت قرية في ضواحي الجيزة . . . ولكن مونمارتر القاهرة هذه ، ستظل تحمل مميزاتها الخاصة التي تنبع من روح الفنان المصري المعاصر وتعبر عنه تعبيرا حقيقيا مثيرا . . .

هاربان في الحرانية

« هاربان من مدينة الدمار
ووجهها الاصم كالجدار » . . .

وكنا يومها اكثر من هارب من زحام القاهرة التي صارت تضم ما يفوق الاربعة ملايين انسان خلال النهار . . . وصار زحامها قبل الغروب في رمضان ، وزعيق ابواق سياراتها ، يذكر بساعة (الراش اور) في لندن وباريس ونيويورك او اية « غابة حجارة » اخرى . . .

لذا لم اتردد لحظة في قبول الفكرة ، فكرة الخروج من القاهرة الى مكان هادىء . . . وازددت حماسا حينما علمت ان هذا المكان الهادىء هو قرية تقع بين اهرامات الجيزة وهرم سقارة ، وان عددا من الفنانين قد نزحوا اليها من القاهرة ، وان استاذ جيل من الفنانين هو رمسيس واصف قد تبرع بهندسة بيوت الفنانين هناك (رمسيس واصف

Akhawia.net

يقام الآن متحف في القاهرة يحمل اسمه ، وهو استاذ في كلية الفنون الجميلة ، وصاحب نظرية استطاع تطبيقها عمليا في قرية الحرانية تلك ، نظرية ترمي الى تفجير الطاقات الفنية لدى الفرد المصري العادي الموهوب وغير (المثقف) فنيا ، مثل زوجة الخفير والطفل والفلاح والعامل) . . .

ومما لا شك فيه انه نجح في خلق نواة لمستعمرة فنية ريفية ، ونموذج خاص يندر مثاله . . . هذا ما استطعت ان اقدره منذ الوهلة الاولى ، منذ قطعت بنا السيارة اربعة كيلومترات في طريق فرعية عن طريق هرم الجيزة ، ولاح خلف الترعة الريفية واشجار النخيل عدد من البيوت المثيرة للفضول بقبابها الطينية وهندستها الخاصة النوبية ونوافذها وشرفاتها الصغيرة الخشبية الافريز التي تذاكر بشرفة روميو وجولييت . . وبعد لوحة عليها اسم : « عش رمسيس » لوحة تحمل اسم « الحرانية » ، وطريق ترابية تمتد امام هذه البيوت الاسطورية المناخ ، والصعيدية الطبيعة ، والتي يمنحها مشهد الاهرامات عند الافق مذاقا تاريخيا فرعونيا كثيف الايحاءات والرؤى . . .

وتتوقف بنا السيارة امام احد البيوت ويقول الصديق القاهري : ما رأيك بزيارة آدم وزوجته ؟ . انه رسام ونحات وأحد المبدعين المصريين . . . ولم ارد . وقفت جامدة اتأمل الدار الصغيرة . . . كانت مبنية من الطين والطوب كالاكواخ ، وعلى جانب كبير من جمال الهندسة وبساطتها . . تحيط بها حديقة مزدهرة الخضرة ، ليس لها سور ، وتلوح في آخرها الاهرامات كأنها من بعض معالم الحديقة . . كانت هنالك بقرة وعنزة وتنور لخبز (المرقوق) وفلاحة تغفو على جانب الترعة تحت نخلة . . . وكلب تقدم مني وهو يهز بذيله مرحبا وهنا لم اتردد في الدخول ، تابع الصديق : صمم هندسة هذه الدار الفنان رمسيس واصف كهدية ، وبناها الفنان بيديه . . وحينما صافحت يد الفنان وكانت قوية وخشنة صدقت انه هو الذي بنى هذه الدار ، . . . تابع الصديق : هذا آدم . . وهو يعيش هنا وحيدا مع زوجته السيدة عفاف الديب .

ولم اكد اتقدم خطوات في الحديقة وانا في طريقي الى داخل الدار حتى وجدتني اقف مذهولة . . . فقد اكتشفت فجأة ان البيت مأهول بأكثر من آدم وحوائه . . . وحينما صرت في الداخل تأكدت ان خمسين مخلوقا على الاقل يعيشون في هذه الدار بما فيهم آدم وزوجته ! فعلى تلة صغيرة من التراب والحشيش جلس رجل جلسة انتظار وترقب ، ووضع كلتا يديه حول احدى عينيه ليكون اكثر قدرة على الرؤية . . . وقبع هكذا

Akhawia.net

جامدا . . . ولم اسأله من ينتظر ؟ وظهور ماذا يترقب ؟ كان واضحا انه يرقب باصرار كل قادم . . . انه انسان آخر « في انتظار جودو » . . . ولكن . . . من هو جودو في نظره . . . كان من الصعب ان انتظر جوابا ، لانه رغم ان كل ما فيه كان ينطق بالحياة الا انني لم انس انني امام تمثال رائع النحت . . . كان في الحديقة ايضا كلب آخر ينطق بالحياة لكنه لا يتحرك من مكانه لانه مخلوق من الحجر . . كان هنال صبي يشرب الماء من (قلة) . . وكان هنالك رأس ضخم لرجل حارس متربص في حقل الملفوف . . وسرير نوبي مصنوع من الجريد يدعى « العنقريب » يرتفع فوق اربع قوائم وتعجز العقارب عن الوصول الى النائم فيه كما قال لي آدم . . ورجل عيناه مسمرتان على الاهرامات وتعابير وجهه تنطق بالصبر والحزن العميق غير السلبي ، كحزن الطبيعة قبل لحظة انفجار بركان ما . . وكان في عيون التماثيل كلها ما يشبه دمعة لا تنحدر ولا تجف ، دمعة محملة بالغضب كالمطر الذي ينهمر قبل الزلزال . . واحسست بحنجرتي تجف . . كانت تلك المخلوقات الصامتة تصرخ ، تهذي ، تروي حكايات تاريخية مذهلة . . وطلبت ماء . . وانحنى آدم على مضخة ريفية يدوية يستخرج المياه من البئر ، بينما تعلقت نظراتي بكائن آخر عجيب ، كائن بحري ابيض كبقية التماثيل اظن انه نوع من الاسفنج الكلسي المرجاني ، وسألت آدم : « هل خلقت هذا ايضاً » ؟ قال : « لا . . هذا من نحته هو (واشار الى السماء)، ثم اضاف : انه هو أيضاً نحات ماهر ورسام عظيم .

الباب يذكرني ببيوت زقاقات دمشق العتيقة ، مثلها منخفض واعلاه قوس ، في الداخل رطوبة لا تطالها الشمس ، يستقبلني فتى بلون البن ، اسمر وجميل مثل حقول الكستناء وقد وقف على السلم الذي يقود الى الطابق الثاني حيث غرف النوم والحمام . في الطابق الارضي استديو الفنان ، وهو آية في فن الهندسة بقبابه الجميلة التي تذكرني بالبيوت التونسية ونوافذه الصغيرة التي تحمي المكان من حر الشمس وتوفر له النور . . يتوسط المرسم التمثال الاخير للفنان آدم . . تمثال رائع مذهل . . اسمه : الرجل والدرع . . .(من منا لا يحمل درعا ، بل دروعا في وجه القدر والمجتمع وبقية القوى المعادية غالبا للانسان) . . الرجل يواجه مصيره . يتنكب درعه بشجاعة . لا يرتدي قناعا . آدم يكره الاقنعة . . هنالك لوحة (المرأة واليويو) تمثل ثورة ساخرة على مجتمع لابسات الاقنعة . . هنالك امرأة تمثل نموذجا (لتانتات) المجتمع ووجهها اقرب الى القناع منه الى الوجه الانساني ، و (اليويو) في يدها رمز الى وجودها الطفيلي البورجوازي اللامجدي الذي يقوم على استهلاكها لطاقات الغير . . هنالك ايضا طيور تقترب منها فلا

Akhawia.net

تهرب وتمسك بها فتدهشك نعومة ملمسها الحي وتتأملها فيخيل اليك انها تنبض بالدفء والحياة ، وتعيدها الى مكانها ويدهشك انها لا تطير . . هنالك فأر قرب العتبة لا يهرب . . هنالك سمكة صغيرة يخرجها آدم من جيبه ويعبث بها . . كلها لا يهرب ولا يصرخ . . كلها خلقها آدم من الحجر . . وادخل الى المطبخ ، ارافق زوجته السيدة عفاف التي تعد الشاي ، وفي المطبخ صبية حجرية (ممسوحة) البطن ، يبدو عليها الجوع كأنها في انتظار انتهاء اعداد وجبة الطعام . . وهنالك سجادة معلقة على الجدار رائعة الرسوم تحمل طابعا مصريا فرعوني الرسوم متطور الاداء وتقول السيدة عفاف : اسم هذه البنت النحيلة الجائعة (وجيدة) . . . واما السجادة فهي من صنع محلي . . انها من صنع فنان مصري جار لنا ، بالضبط هو الذي يرسمها بينما يقوم بعض اهل القرية الموهوبين بصنعها . . زوجة الغفير الفلاحة فنانة مدهشة في هذا المجال . . انها طبعا لا تقرأ ولا تكتب ولكن استخراج الموهبة من الناس العاديين هو ما نرمي اليه في هذا المكان ، وهو ما سيجعل من الحرانية بعد اعوام مركزا فنيا شعبيا مدهشا . .

تابعت وهي تسكب الشاي في اكواب خزفية غريبة الالوان والرسوم ، مصرية الطابع : هذه الفناجين والصحون مثلا من صنع محيي حسين الخزاف وورشته وهو الذي يقطن الدار المجاورة لنا . . ويعمل معه فريق من اهل (الحرانية) الموهوبين . .

وأسألها : عفاف ، الا تشعرين بالضجر من الوحدة . . وبدت في نظرتها الدهشة . . احسستها تريد ان ترد علي بسؤال مماثل كأن تقول لي : وانت ، الا تصابين بالانهيار العصبي او الجنون من الزحام ؟

وعفاف سيدة مثقفة (ليسانس فلسفة من جامعة عين شمس . ماجستير انتروبولوجي من الجامعة الاميركية . سنتان لتحضير الدكتوراه في لندن مدينة الثمانية ملايين) . لم تتابع دراستها في لندن لاصابتها « بانزلاق غضروفي » في ظهرها وعادت الى القاهرة حيث التقت بآدم واصيبت « بانزلاق عاطفي » . . ثم ها هي هنا في (الحرانية) وحيدة مع آدم . . تقطر السعادة من عينيها الجميلتين . .

لا . ليسا وحيدين . يقطن الدار الرائعة بالاضافة اليهما ما يقارب الخمسين مخلوقا بينهم البشر والقطط والكلاب والفئران وكلها من الحجر وكلها رائعة تنبض بالحياة حتى بدأت اسأل عن اسمائها ، (في الليل بعد ان ينام آدم وحواؤه ، لا بد ان هذه التماثيل تتبادل الحوار بل وتتجول في الدار وربما في الحديقة ولكنها لا تتشاجر لانه لا يبدو على اي منها آثار خدوش او بقع دم على الارض) . .

Akhawia.net

وجـه آدم يشبـه وجـوه تماثيلـه . . وجـه مصري أصيل ، بريء ، ذكي وصلـب الملامح . . لم يرتد كرافتة وبنطلونا (محزقا) قبل ان يقف امام الكاميرا وانما وقف كما هو ببساطة وبثياب العمل ، كأن تماثيله ليست محفوظة في متاحف اميركا واوروبا . . (كان من الطبيعي ان يهجر القاهرة واجواءها ، وان يهجر عمله السابق في روز اليوسف وحتى اسمه السابق صمويل آدامز ، ليأتي الى احضان الطبيعة ، كرجل نبت في قلب الصخر ، وليكون مثالا لآدم المصري الجديد الذي سيصنع نهضة مصر الجديدة) . .

وأسأله قبل ان اغادره لاتجول في بقية انحاء القرية : لماذا لا تسور حديقتك ؟

يرد ببساطة : لانني احس ان الصحراء جزء منها . . وان الاهرامات تقع ضمن حديقتي انا !! . . .

مونمارتر

ليس في الحرانية (مونمارتر القاهرة) حمارة ، ولا دار لهو . . انها قرية وادعة تفيض فنـا وبساطـة وتنبض بروح العلـم والابـداع . . أهلها بسطـاء وطيبـون كالنخيل ، كالبيوت . . بيوت الفنانين التـي رسمهـا رمسيس آية من آيات الفـن الهنـدسي (بيت اسماعيل نافع . . بيت الفنانة زينب . . ومحيي حسين الخزاف . .) . . ومحتوى البيوت كل منها متحف ابداع قائم بذاته . . ونواة لComunity (ليس لدينا نحن العرب سوى قبائل وعشائر ولكن ليس لدينا ترجمة لكلمـة تجمع : كوميونيتـي) ومـن هنـا اهمية هذا (التجمع الخلاق) . .

تجربة جديرة بالاهتمام

رغم التجربة الفنية المثيرة التي تلعـب فيهـا القـرية دور المختبـر ، ورغـم كل ما شاهدت في القرية ظلت تماثيل هذا المبدع ، آدم ، تلاحقني بوجوهها النوبية الحـزن ، وصلابتها التي تذكر بفلاحي اسوان والصعيد حيث عاش الفنان اربع سنوات من عمره بينهم . .

وكما كنت اضيع في الدار بين مخلوقاته . . واحار فيما اذا كانت من صخر ام من لحم ودم . . كذلك وانا اغادر القرية ساعة الغروب ، شاهدت عربة وسط ظلال المساء يجرها حمار وقد تربع فوقها رجلان . . واطلت النظر اليهما ، وعبثا استطعت ان اميز فيما اذا كانا من التماثيل ام البشر . . وحينما رفع احدهما يده ليبعد ذبابة عن وجهـه تأكدت من انهما تمثالان ! . .

Akhawia.net

القاهرة ٥/ ١٢/ ٦٩

أين المعنى الاصلي لرمضان ؟

القاهرة في رمضان امرأة كسول ، تلعب (اليويو) طوال النهار ، وتتثاءب ، وتكحل صحون الأكل ، وحينما لا تطبخ ، تغفو لتحلم باليراميش والكعك والمكسرات والنقوع . . .

امرأة مرهقة ، تشتم الجوع والعطش وتعبث بمسبحتها ، لا تقرأ ولا تكتب ولا تسمع . . . وان قرأت ففي كتاب ادعية لرمضان ، وان كتبت فأدعية وكتب تعليم الطبخ ، بما فيه الاصناف المنسية من (الاذاذ) حتى (اللوزينج) ، وربما مانشيتات الصحف عن رد العدوان . . . ثم الصفحات الدينية الخاصة بهذا الشهر . . .

وحينما تدنو ساعة الافطار ، تركض القاهرة مجنونة بين سنابك الزحام . . . ثم ، مع ضربة مدفع ، تخلو الشوارع ، ويخيم عليها سكون عجيب لا يسمع خلاله سوى صوت اصطكاك الاسنان والملاعق والصحون والبطون . . . وهكذا لمدة شهر في كل عام ، البلاد في حالة حرب ، ونسبة الانتاج تتدنى حتى لتكاد البلاد تخسر من دخلها ما نسبته ١/١٢ من مجموع الدخل العام طيلة اشهر السنة . . . هذا بالاضافة الى مبلغ خيالي ينفق كل عام من الدخل القومي في شراء مستلزمات الصوم التقليدية من كعك وياميش ومأكولات غير صحية ، وبالتالي فواتير للاطباء وثمن أدوية . . . ووقت مهدور . . . والعدو متربص على الباب . . .

رمضان كريم ؟ . . .

رمضان كريم ؟ ربما . . . ربما لو ظل رمضان محتفظاً بمعناه الاصلي وبالمدلول الحقيقي لطقوسه . . . اما حينما يصبح رمضان مجرد شهر يجوّع فيه الانسان نفسه ، من اجل مزيد من الاستمتاع بلذة الطعام ، وحينما يحشد لهذه الغاية (الحسية) جميع طاقاته المادية وطاقات اسرته المطبخية ، حينئذ نصبح امام ظاهرة من الابيقورية الدينية تستحق الدراسة . . .

والواقع ان تحول أكثر مظاهر العبادة (والصيام من ابرزها) الى مجرد مظاهرة طقوس تقليدية مجردة من مضمونها الفكري والروحي السامي ليست ظاهرة تختص بها مصر وحدها

Akhawia.net

وانما هي ظاهرة منتشرة من رصيف المحيط الى رصيف الخليج ، ونجدها في اكثر من مدينة أو قرية عربية بنسب مختلفة . . . ولكنها في القاهرة ، اكبر مدينة عربية تتخذ شكلاً بانورامياً اكثر وضوحاً ، ويصير شهر رمضان معبراً عن الصدامات التاريخية داخل المجتمع المصري ومسرحاً لها (ان لم نقل الصدامات التاريخية داخل كل بيت مصري) . . .

حي الحسين

مسجد الحسين او (سيدي الحسين) كما يسمونه يتوسط الحي المسمى باسمه والذي يصير في رمضان دنيا من الحركة والبيع والشراء ، وكرنفالا عجيبا من السياح والفضوليين واصحاب الطرق الدينية والشيوخ والمصلين والعلماء والعوالم وابناء البلد والفقراء والنشالين والـ (خواجات) و (الفنانين الشعبيين) وغيرهم . . .

تزدحم الازقة الضيقة بالناس . . . قليلون جاءوا بقصد الشراء من السوق ، التي تظل مفتوحة الدكاكين وقائمة البسطات حتى مطلع الفجر . . . وكثيرون جاؤوا بدافع الفضول والرغبة في رؤ ية ما يدور . . . وما يدور يثير الفضول حقاً . . .

بسطات الباعة الجوالين تكاد تسد الازقة الضيقة حول باحات المسجد ، ويتدفق الناس حولها كالسيل حول صخور ضخمة تعيق مجراه . . . ومن البسطات تشتري البخور والاحجبة والتمائم كما تشتري السمك والخضار والفواكه . . . وتستطيع ايضا ان تضع قرشاً في ثقب آلة وتختار احد الازرار وتضغط عليه ليبتسم خلف الآلة وجه صاحبها ، ولتسقط لك ورقة مطبوع عليها ما هو مكتوب لك بالغيب في مستقبل حياتك (وهو طبعاً أمر مخالف لتعاليم الدين الاسلامي) ويناولك الورقة صاحب (الكومبيوتر المنجم) وهو يقول لك : كل رمضان وانت بخير ! . . .

ويندر ان يمر يوم ما من ايام رمضان دون ان تمر بسرادق من السجاد والبسط اقيم في مكان ما من حي الحسين تتجه اليه قافلة كبيرة من الرجال تحمل الاعلام والرايات ، ولافتات كتب عليها مثلا « السادة اصحاب الطريقة الرفاعية » أو « طريقة السادة الحامدية الشاذلية » . . .

لحقت بأصحاب احدى (الطرق) الى سرادقهم . . . وقفوا في صفين طويلين وبدأ كل منهم يقذف برأسه الى الامام والخلف والجانبين (كما يفعل راقص الجيرك) وهو يردد بصوت هستيري غيبوي مع كل قذفة رأس : « الله الله الله » . . . واتلفت حولي فأجد ان هدر الطاقات الجماعية هذا والاستعراضية الدينية هي أبعد ما تكون عن روح

Akhawia.net

الاسلام ، الاسلام دين العمل لا الهذيان ، دين الذود عن حياض الوطن لا الهرب من الواجب الى طقوس خارجية لا تنفع احداً . . . لا أبالغ اذا قلت ان حفلة الزار هذه ، وابطالها بعيونهم الجاحظة نصف المغمضة ، وحركاتهم الهستيرية ، ذكرتني بحفلات جرع الماريوانا والـ (الي . اس . دي) في لندن . . . كلاهما تخدير ، وغياب عن الواقع وهرب منه . . . أين الصرخة التي تحذرنا من تحويل ديننا من قوة ضارية في وجه العدو الاثيم الى افيون مخدر يحالف عدونا علينا ؟ . .

سرادق للصحـــو

اسمع سائحة تسأل أخرى بالانكليزية وهي تراقب الزار مثلي : « هل هم تحت تأثير مخدر ما ؟ سمعت ان الحشيش متوافر هنا . . .

وهنا يمتلىء قلبي غماً ، واتساءل : الى اين يمضي شعب ، الشخص (المثالي) فيه هو رجل يقف ساعتين في طابور وهو يهذي ! وأشعر بأن المطلوب هو حل جذري كبير ، بينما تزوغ نظراتي حولي بحثاً عن دواء لهذه الخزعبلات الجماعية . . .

وفي مواجهة هذا السرادق ، « سرادق التخدير » يطالعني « سرادق للصحو » . . . بالضبط سرادق أقامته الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر لبيع الكتب الفكرية والادبية . . . ادخل الى السرادق الذي يتوسط حي الحسين . الزوار كثيرون (اي ان المقبلين على الدواء كثيرون . المهم فتح مزيد من « الصيدليات الفكرية » لابناء الشعب . . . كتب عربية ومترجمة مختلفة . . . رف الكتب الدينية لا يطغى على سواه ولا يمحي تماماً ، وانما يأخذ حجمه الطبيعي) .

الدكتورة سهير القلماوي ، صاحبة هذه الفكرة الناجحة والمشرفة على تنفيذها بحكم عملها كرئيسة مجلس ادارة الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر في ج . ع . م تحكي لي فكرة السرادق : « هذا شبه معرض للكتاب . نقيمه في كل مكان يقام فيه مهرجان ديني او شعبي ، يقام هنا خلال شهر رمضان كما يقام الى جانب مظاهر الاحتفال بمولد الامام السيد البدوي . . . وغيره . . . نسبة البيع مرتفعة . الاقبال كبير على الكتب المترجمة مثل شكسبير مثلا عكس توقعات الكثيرين . . . الشعب المصري يحب ان يقرأ ، ويقبل على القراءات الفكرية والادبية والنقدية لا الدينية فقط . . . » .

ومما لا شك فيه ان الدكتورة سهير القلماوي تقدم جهوداً جبارة في هذا المجال ، وتشارك في حملة التثقيف والتوعية التي (تحدثنا) عنها طويلا و (فعلنا) قليلاً . . . انها تقف في طليعة العاملين على نشر العلم الحديث والتكنولوجيا ، والمنهج العلمي في التفكير

Akhawia.net

والتخطيط واعداد النفس ، وغير ذلك من الدعوات التي اطلقت في اعقاب هزيمة حزيران . . . ولكن جهودها تظل مثالا نادرا من امثلة العمل المبدع داخل الاطار الرسمي ، وتظل أقرب الى مبادرة فردية منها الى موقف عام شامل لدى الجميع .

ففي احدى الصحف الرسمية التي تتخذ شعاراً لها عبارة (حرية . اشتراكية . ثورة) قرأت في الصفحة الدينية فتوى لشيخ بمناسبة سؤاله : هل يحق للمرأة ان تقرأ القرآن ؟ والفتوى هي على رأي الشيخ الجليل : صوت المرأة عورة !! . . .

هذا كلام اقرؤه في النصف الثاني من القرن العشرين ، وبعد هزيمة حزيران ! صوت المرأة عورة ! وعلى المجلة عبارة (حرية . اشتراكية . ثورة) ، وفي ذلك تناقض لا حد له . فالمعروف ان نظرة الاشتراكية والماركسية واليسارية الى المرأة تختلف عن هذه النظرة (الجاهلية) المتحجرة ، والمعروف ان ماركس يقيس مدى رقي الشعوب بنظرة هذه الشعوب الى المرأة ومكانتها ! . . والمعروف ان السيدة أم كلثوم التي تحمل أرقى وسام رسمي في ج . ع . م كانت ترتل القرآن . . . فما معنى هذا التناقض ؟

وهل يطالب سماحة الشيخ بسجن السيدة ام كلثوم لانها كشفت (عورتها) الصوتية ! . . . مهزلة . . .

والواقع ان الصفحات الدينية في هذه الصحف (الثورية) مليئة بهذه التناقضات . . . وهذه التناقضات ليست الا انعكاسا لشخصية الفرد العربي المتناقضة . . . اذ ما يزال الفرد العربي فريسة للطلاق بين فكره التقدمي وسلوكه الجاهلي ! . . بين ما يدعيه من تقدمية ويسارية ، وبين ما يتفوه به من آراء رجعية . . . هذا الطلاق بين الفكر والسلوك هو مأساتنا جميعا . . . ومن المذهل ان نجد اكثر اليساريين سياسيا رجعيين في مواقفهم الاجتماعية . . . وان نجد كثيراً من الرجعيين سياسيا تقدميين في سلوكهم الاجتماعي واليومي . . .

وبعد . . .

فان مواقف افراد واعين امثال الدكتورة سهير القلماوي (التي صوتها عورة على رأي سماحة الشيخ) في مواقف اولئك الافراد مبادرات تظل فردية . . . ومما لا شك فيه ان وجودها خير من عدمه . . . بل انها بداية طريق ، واشارة الى الحل الصواب . . .

ولكن تظل الحاجة ماسة الى حل جدي جماعي وسلوك رسمي تقدم عليه المؤسسات الرسمية كافة وبايعاز من المصادر العليا جميعا . . .

Akhawia.net

المطرب الشعبي ضد المجتمع

ويظل اجمل ما في ليالي رمضان في حي الحسين هو المطرب الشعبي الجماهيري ومطربات السرادق الفقيرة . . . . (٥) صاغ اجرة الدخول مع المشروب . وتدخل الى سرادق ارضه من التراب و جدرانه من السجاد ، وصوت المطرب الشعبي ينقل الاغاني الصعيدية الشعبية والاسكندرانية وغيرها . . . المطربة الشعبية « الحاجة عزيزة الاسكندرانية وفرقتها » هي التي تصادف ان غنت في السرادق الذي ساقتني قدماي اليه . . . وصوتها يشبه صوت مطربة منبعثا من فونوغراف عتيق واسطوانة من ايام زمان عمرها ٣٠ سنة لكنه صوت جميل وحزين . . .

واخيرا يستولي على المسرح المهرجون . . .

ويجهرون بكل ما نبطن من سخرية . . . يسخرون من كل شيء . . من كل الناس . . . من (فخذ بلان) الى الآلهة . . . مرورا بالتلفزيون والاذاعة وشؤون السياسة . . . وحدهم صمام امان النفس الجياشة بالغضب . . . ومعهم نضحك نضحك حتى تسيل دموعنا . . . ولا ندري هل هي دموع الضحك ام دموع حزن لا نستطيع ان نواجهه او نبوح حتى لانفسنا بأسبابه . . .

Akhawia.net

القاهرة ١٩/ ١٢/ ٦٩

محاولة اغتيال يوسف ادريس

يوليوس قيصر : احذركم من كاسيوس فهو رجل لا يحب الموسيقى ! . .
شكسبير ـ من مسرحية « يوليوس قيصر » . . .

في نظر شكسبير ، الانسان الذي لا تهتز اعماقه للموسيقى هو رجل عاجز عن الحب ، والرجل العاجز عن الحب رجل خطر ، خطر كرجل دولة وخطر كمواطن ما دام عاجزا عن حب أيٍّ سواه كوطنه وكشعبه . . . فالموسيقى كالفنون كافة وعلى رأسها المسرح والرسم ، لا تكشف عن معدن الانسان فحسب ، وانما تعريه امام ذاته ، وتصقل هذه الذات وتهذبها وتغرس فيها أنبل المشاعر الانسانية ، وتوسع نظرة صاحبها الى الوجود والحياة . .

والمسرح في نظري من ابرز الفنون الجميلة القادرة على (خض) الجماهير، وعلى (صعقهم) وتفجير اعماقهم ، والتعبير عما يتأجج في نفوسهم من غضب كظيم او حزن عميق غامض الجذور .

ولذا كان اهتمامي به كبيرا ، وفي القاهرة بالذات ، انا التي شهدت في رمضان الماضي في القاهرة نهضة مسرحية مذهلة ، اذ كانت مسارح القاهرة تعرض في وقت واحد مسرحية الدكتور رشاد رشدي (بلدي يا بلدي) ومسرحية (علي جناح التبريزي وتابعه قفه) للاستاذ الفريد فرج ومسرحية (دائرة الطباشير القوقازية) لبرخت من اخراج الفنان سعد اردش وغيرها من المسرحيات الناجحة التي خلقت مناخا فكريا رفيع المستوى وجوا للحوار الخصب البناء . .

ويومها كتبت مقالي « نجح المسرح المصري وسقطت السينما » وكنت التهب حماسا للمسرح المصري . . وللعودة اليه ومتابعته . . ولذا ، كان اول ما فعلته هذا العام لحظة وصولي الى القاهرة في رمضان بعد غيبة عام عنها ، هو البحث في زاوية الصحف « اين تذهب هذا المساء » عبثا عن مسرحية جيدة . . كانت هناك اعلانات عن مسرحيات امثال (النحلة والدبور) و (البطة والخنشور) . . ومسرحيات اخرى مشابهة ميلودرامية خفيفة هدفها اضحاك الجمهور بأية وسيلة . اسفت لذلك . . . وسرت في طريق سليمان باشا حيث الكرنفال الرمضاني بعد المغرب وعيناي تتملصان من الزحام ، تزحفان على

Akhawia.net

الاعلانات الملونة المضاءة بحثا عن مسرحية تستحق الاهتمام او تلفت الانتباه . . عبثا . . واخيرا . . التقت نظراتي بلافتة اعلانات تعلن عن افتتاح مسرحية « المخططين » من تأليف الدكتور يوسف ادريس . . وفرحت . . وهرولت باتجاه المسرح رغم انني كنت اعرف سلفا ان التذاكر لا بد وان تكون قد نفدت . . قررت ان أجرب حظي في السوق السوداء . . وحينما وصلت الى الباب فوجئت بمنظر مؤسف . . كان هنالك زحام ، استطعت ان اميز خلاله عددا من ادباء مصر وصحفييها والعاملين في حقل الفكر بها ، وعلى وجوههم حزن عميق كأنهم عادوا للتو من جنازة طفل غال ، ثم اكتشفت انهم قد عادوا فعلا للتو من جنازة طفل غال ، اذ تم دفن المسرحية قبل ان تولد بساعات . . بالضبط ، اغتيالها . . اغتالها (رقيب) . . وكانت تسري بين الجميع همهمة اسى مكتومة وتفوح رائحة الاثارة والخشية والقلق . . كانوا تماما كجمهور شهد للتو جريمة علنية وما تزال جثة القتيل التي تنزف دما حارا وبغزارة ، مكومة في زاوية ما من زوايا الشارع . . ودرت حول المسرح ابحث عبثا عن القتيل فلم اجده . . لكنني شاهدت الدكتور يوسف ادريس يسير مترنحا كمن اغمد في صدره خنجر غير مرئي ! .

لا يـا رقيـب ! . . .

لا . لن يتم اغتيال يوسف ادريس و (عصابته) من المبدعين والمفكرين وبهذه البساطة ! . . لا . ان تنفق مؤسسة المسرح حوالى ٣٥٠٠ جنيه على اخراج المسرحية ، وتذهب كلها هدرا،وان يعمل المخرج الجاد سعد اردش ثلاثة اشهر ونصف مع فريق كبير من المع الممثلين ، ثم يذهب ذلك كله هدرا امر لا يحق لنا المرور به على عجل . . ولا بد لنا كمواطنين عرب ادمنوا المسرح المصري واحبوه وعايشوا نهضته الرائدة في عهد الثورة ، لا بد لنا من كلمة نقولها في هذا المجال . . لا بد من صرخة : لا . . نطلقها بأعلى حناجر اقلامنا . . وقبل ان اصرخ لا على المبدأ ، مبدأ الرقابة على النتاج الفني اصلا ، لا بد من كلمة تقال حول هذه المسرحية بالذات ، التي ذهبت جهود العاملين فيها هدرا . . وذهبت كلها بالاضافة الى ٣٥٠٠ جنيه من اموال الدولة ضحية لخطأ احد اجهزة الدولة ربما المستحدثة . . لقد تقصيت وبحثت في امر هذه المسرحية ، ليس لان الدكتور يوسف ادريس احد كبار المسرحيين العرب وأحد اعمدة المسرح العربي الطليعي هو كاتبها فحسب ، وليس لان سعد اردش هو مخرجها . .

ولكن . لانه من حيث المبدأ كان لا مفر من ان اسأل واتقصى عما يمكن ان يبرر هدر طاقات خمسين فنانا بين ممثل وفنان وديكور واحراق كوم من الاوراق النقدية وقدره ٣٥٠٠

Akhawia.net

جنيه واتلافه مع اعصابهم واعصاب كاتبها ومخرجها . . وعن الجهاز الذي يمكن ان يرتكب مثل هذه الخطيئة . . ومن وكيف ولماذا ؟ . .

صديقة لبنانية التقيت بها على الباب في جنازة (المخططين) الصامتة قالت لي : المأساة انه سبق للرقابة الفنيةان وافقت على عرض هذه المسرحية منذ اشهر ، وانطلاقا من هذه الموافقة بدأت مؤسسة المسرح (الرسمية التابعة للدولة) بالاستعداد لتقديمها مع الموسم الجديد ، وانه انطلاقا من هذا ايضا تم انفاق ٣٥٠٠ الى ٤٠٠٠ جنيه كأجور ممثلين ونفقات اخراج ، وسار كل شيء في طريقه المرسوم له حتى كان مساء حزين قبل افتتاح المسرحية بيومين ، حين تدخل رقيب ليمارس عمله ، وقام هذا الرقيب بمنع المسرحية التي بلغت النضج وتقمصت شخصياتها نفوس الممثلين ولم يبق الا ان يتحركوا احياء ينطقون على المسرح . . ولكن . . والسؤال هنا : هل سلطة الرقيب الجديد (رجعية) المفعول ؟ بعبارة اخرى هل سلطة الرقيب تشمل ما كانت قد تمت الموافقة عليه من قبل ؟! . . وان لا ، فكيف يحق له منع مسرحية هي بحكم المنتهية وبموافقة رسمية من السلطات التي كانت مسؤولة يومئذ ؟ وان تكن ، سلطة الرقيب رجعية المفعول ، فهل يصح تقديم يوسف ادريس مثلا الى المحاكمة لان اجتهاد الرقيب الجديد يرى انها تستحق المنع ولم تمر من خرم ابرة مقاييس الرقيب الفكرية ؟ . . هذه الازدواجية في الصلاحية لا يجوز ان يذهب الفنان المبدع ضحية لها . . ويجب ان لا ننسى انه من الممكن تعيين رقيب كل يوم بمرسوم جمهوري لكنه من المستحيل (تعيين) فنان مبدع كل يوم بمرسوم جمهوري . . . ويوسف ادريس كأي مبدع آخر هو ثروة قومية تفخر به العروبة قبل ان يفخر به قطره الشقيق مصر ، ولذا فان الصدام بين الفنان والرقيب امر خطير لا يجوز الاستهانة به ، ولا يجوز تسليم الرقيب صلاحية تدمير اعصاب كائن حساس وضفيرة من الاعصاب اسمها فنان ، ببساطة ، ودون الوقوف طويلا عند مثل هذه البادرة . .

لقد روت لي صديقتي اللبنانية ان وجه الدكتور يوسف ادريس ليلة منع المسرحية (اعدامها) ظل جامدا كقناع ، صلبا ولكن كالقشرة الارضية لبركان حي قد ينفجر في اية لحظة . . اما بقية الفنانين من اعضاء الفرقة فقد واجهوا الموقف في البداية بصلابة مثل صلابته ، بل انهم رفضوا ان يصدقوا ان القرار قد صدق حقا ، وان حكم الاعدام قد تقرر نهائيا على شخصياتهم (المتقمصة) ، وانهم قرروا متابعة (البروفه) ، مثلوا المسرحية بلا جمهور ، وفي البداية كانت اصواتهم قوية وشرسة ، ثم اخذت تخفت وتخفت وتتحشرج بالدموع كأصوات حنجرة يتم خنق انفاسها ثم انفجر الجميع في بكاء موجع

Akhawia.net

اليم . . .

تلك كانت المسرحية التي اختارها الرقيب بدلا من (المخططين) والتي لا يحق لنا اسدال الستار عليها ببساطة كما فعل الدكتور يوسف الذي ظل صامتا ، والذي شاهدته ينسل من المسرح ، بوجهه القناع الصلد ، مترنحا كرجل مطعون بخنجر غير مرئي استقر في احشائه . .

وبعد ، لا بد من التكرار انه من الخطأ معالجة المسرح على انه اداة اعلام او نشرة اخبار ، فالمسرح المصري الحالي هو ثروة قومية لمصر تتطلع اليه عيون العرب في كل قطر باعجاب ، وتغبط تطوره الكبير خلال سنوات الثورة المصرية الاخيرة . . ومن هنا كان منع مسرحية يوسف ادريس مفاجأة ان لم أقل بادرة خطيرة . . واني واثقة من ان هذا الخطأ ، الناتج عن (الحول الرقابي) أمر سيتم تلافيه . . . وستعرض المسرحية . .

ثم اقترح عليّ بعض الاصدقاء الذهاب الى قرية أريمون بمحافظة كفر الشيخ لمشاهدة مسرحية (الهلافيت) تأليف محمود دياب ،واخراج احمد عبد الهاوي ، والتي تعتبر ثورة في الشكل والمضون . . .

وقد وجد مخرج المسرحية احمد عبد الهادي في هذا النص فرصة ذهبية لتجربة ما يسمونه الشكل المسرحي القومي . . وقرر ان يقدمها في ساحة قرية اريمون متخذا من البيوت وابراج الحمام كواليس وديكورات . . ومن المتفرجين الحقيقيين عنصرا فنيا يمثلون أهل القرية في المسرحية .

وكان هدف التجربة النهائي ألا يشعر المتفرجون انهم متفرجون . . بل أن يندمجوا رويدا رويدا حتى يحسوا انفسهم طرفا في الصراع الدائر على الخشبة التي لم تكن موجودة فقد حلت محلها مصطبة عالية نوعا عن الساحة التي يجلس عليها المتفرجون متربعين .

لكنني لم اذهب اخيرا الى اريمون ، وانما ذهبت الى محافظة اخرى ومكان آخر سعيا وراء مسرحية سبق لي ان شهدتها !! . . .

انها مسرحية « بلدي يا بلدي » التي يعاد عرضها خلال شهر رمضان والشهر الذي سبقه في الارياف . . وتنتقل الفرقة لتنقل الى الجماهير رؤيا مؤلفها رشاد رشدي ونظرته الجديدة الى مفهوم الدين والعبادة وكيف تصبح شعائر الدين اذا فرغت من مضمونها مجرد تأدية تقليدية لمواقف محنطة مكرسة دون تفكير ولا شعور . . وكيف ترغم الجماهير الغبية حاكمها على ان يكون ديكتاتورا وممثلا لله على الارض ، وهي كي تستريح من عناء المسؤ ولية تفضل ان تكون علاقتها بالحاكم علاقة طاعة بدلا من علاقة تفاهم ومشاركة .

Akhawia.net

عدن ٢/ ١/ ٧٠

بلد الاساطير والمعاصرة

في البداية ، ظننتني في عالم آخر تماما .

فقد غادرت بيروت وليل خريفي بارد يحتل مطارها ، ورياح الشتاء المقبل تقرع نوافذ طائراتها . . .

وحين هبطت في عدن مع الفجر ، كان الصيف المشرق في انتظاري على سلم الطائرة . وكانت هنالك ايضا ابتسامة مشرقة مرحبة لوجه عربي شاب هو الاستاذ عبد الله الخامري المستشار في رئاسة الجمهورية . وحين رافقته من الطائرة الى مبنى المطار لفت نظري امام المبنى مشهد لم ار مثله من قبل في اي من المطارات الاوروبية والعربية التي سبقت لي زيارتها . . . كانت هنالك حديقة صغيرة غناء شجيراتها غامقة الخضرة وازهارها الاستوائية غزيرة الجمال حارة الالوان ، وقد تناثرت بينها طاولات ومقاعد لان هذه الحديقة ليست سوى مقهى المطار . . (ومقاهي الترانزيت في المطارات هي عادة مكان كئيب . . في احدى الردهات الداخلية ، يحتسي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح) . . . أما هنا فالشتاء صيف دائم . . وانفاس الفجر الحارة توحي بأنني في عالم آخر . . .

وحتى بعد ان غادرت المطار وسارت بنا سيارة الاخ عبد الله في الطريق الى عدن ظللت احس انني في عالم آخر . . .

فقد كانت الجبال السوداء ، بركانية ، وحشية الجمال والصخور ، ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تهب منها ومن البحر خلفها تحمل رائحة خاصة وايحاءات عجيبة . . . تذكرني بأنني في ارض الاساطير والبخور والعاج والذهب والحرير وبلقيس وسد مأرب و . . . وقبل ان اتحدث عن الطقس وعن هذا كله سبقني الاخ عبد الله فحدثني عن . . . الثورة ! . . . وهنا تأكدت اني لست في عالم آخر . . . وانني في ارض عربية اخرى ثائرة . . . وان اختلاف لون جلد الجبال والتربة وانفاس الطقس ، لا يبدلان شيئا من الحقيقة الواحدة التي تدور داخل جسد كل قطر عربي : الثورة . . .

والسيارة تمضي بنا ، اشار الى صف من الابنية البيضاء النظيفة ذات الطراز

Akhawia.net

الانكليزي جدا في البناء وقال : كانوا يقطنون فيها ، ويتركون لابناء الشعب احقر الاكواخ ، شأنهم في ذلك شأن اي مستعمر . .(وها قد رحلوا اليوم وخلفوها لكم ببياضها الناصع لتسكنوها انتم) . . . وأضاف بحزن صادق : لدينا ازمة سكان لا ازمة سكن ! أجل ! ربما كنا البلد العربي الوحيد الذي يعاني من هذه الازمة !

مررنا بشارع المعلى في قلب مدينة عدن . . الابنية فخمة ولكن بطانة الشارع او لنقل واجهته الاخرى هي حي فقير من اكواخ التنك والخشب . . قال : وهنا ايضا . . . كان الشارع الرئيسي الفخم لهم ، والاكواخ التي لا تبعد عنه امتارا لأبناء شعبنا . هذه صورة من صور الاستعمار يا سيدتي . . وستشاهدين المزيد . . .

ولم احدثه عن الصور الكثيرة المشابهة والمتشابهة التي خلفها الاستعمار في قطري العربي وفي كل قطر عربي ، وانما اكتفيت بالصمت وغمرني احساس غامض بأنني - رغم اختلاف جسد الجبال هنا ولون لحم التربة - في دمشق ، في بيروت ، في القاهرة ، في أية عاصمة عربية قاست من الاستعمار طويلا . . . وهل هنالك منا من لم يعان ؟ . . . .

الاسبوع المختزل

اسبوع في عدن . . . مع كل يوم كنت اكتشف شيئاً جديداً ، وكنت أكتشف في الوقت ذاته ان هنالك الكثير الذي ما زلت اجهله . . وان ما اجهله هو اكثر بكثير مما اكتشفه . . .

اسبوع ، تجولت خلاله خارج عدن الى ريف اليمن الجنوبية الشعبية . . . ذهبت الى أبين والى جعار ، والى زنجبار ، وتحدثت الى رفاق ثوار فوق تلال حصن خنفر وتحدثت الى الفلاحين والبسطاء والاطفال وحتى الصخور والآثار . . . وكنت كلما فهمت شيئا ادركت كم هنالك ما اجهله . . . وكنت كلما قال لي صديق (مرحبا) ، ومرحبا هناك معناها (اجل واتفقنا ، وحاضر ، وأهلا ووداعا) ، كلما قالها صديق احسها تحفر في اعماقي وشما من جمر محبة ، وربما بعضا من حزن غامض لانني اعرف انني لن املك الا ان اقول مرحبا يا عدن ، ووداعا يا عدن ، وسأقولها قبل ان اعيش في عدن ما فيه الكفاية ليفسر قلمي (منطقيا) مجموعة من الاعتقادات والانطباعات التي خرجت بها عن اليمن الجنوبية الشعبية في فترة قصيرة كهذه . . . انطباعات قد تبدو لذلك (عاطفية) المنشأ ، لكنني آمنت دوما بأن (الحدس) على غموضه هو اقدر احيانا من العقل على التقاط الحقيقة . . . و (أنتيناته) المشرعة قد تكون مرهفة اكثر من عدادات اي كومبيوتر . . . وعلى أية حال ، انقل اليكم انطباعاتي التي ارتسمت على شاشة حدسي ، ومعها اعترافي

Akhawia.net

بأنني حرصت على الموضوعية رغم انجذابي عاطفيا لذلك القطر العربي الشقيق ، اليمن ، الجمرة الملتهبة ثورة وحياة وتمردا . . .

المرأة العربية في القرن الواحد والعشرين

اعترف بأن اول امرأة شاهدتها في عدن اثارت خوفي ، ثم دهشتي .

كانت شيئا ملفوفا بملاءة سوداء ، يتحرك على الرصيف مثل ملايين الكائنات الانثوية المهدورة الطاقات على رصيف عالمنا العربي الممتد من المحيط الى الخليج . . . وحينما ادارت وجهها الي شعرت بالخوف . . . فعلى وجهها منديل اسود شبه شفاف ، لكنه ليس اسود فقط وانما هو مرقط ببعض الالوان الحمراء والزرقاء والخضراء ، وفيه رسوم وبقع عجيبة يبدو خلفها وجه المرأة كما لو كان مشوها . . هذا بالنسبة لمن يراه للمرة الاولى . . . هذا الحجاب (المريع) لم يعد يخيفني في المرات التالية ، وانما صار يذكرني بانكلترا . . ربما لأن رسومه الملونة هي بطريقة ما رسوم (هيبية) ، وربما لأن الحجاب بحد ذاته صورة من صور التخلف ، والفضل الاول في التخلف يعود دوما للمستعمر . . استعمرت هذه الارض العربية ما يقارب قرنا ونصف قرن تركت فيه من بصمات التخلف ما تركت ، كما حافظت على المؤسسات التي وجدتها متخلفة وحرصت عليها ضد التطور . . .

حقدي هذا على الملاية اللف التي توحي لي بأن المرأة داخلها ما تزال داخل شرنقة القرن السابع عشر (يسمون الملاية اللف هناك الدرع) ، هذا الحقد تضاءل حينما سمعت بما (للدرع) من اياد بيضاء على الثورة والثوار في اليمن . . . فقد سألت الاخت عايدة يافعي (من اعضاء اتحاد نساء اليمن) ،لماذا ترتدي والاخوات (الدرع) رغم انهن غير محجبات وحاسرات الرأس ، وهنا روت لي والاخت فوزية محمد جعفر حكاية الملاية اللف حين تصير درعا حقا . . . (نحن نعتبر عام ١٩٥٤ نقطة تحول هامة في حياة المرأة لدينا فقد خرجت ذلك العام في مظاهرة عنيفة تعبيرا لرفضها المطلق لواقع بلدها المتخلف الرازح تحت كابوس الوجود الانجلوسلاطيني . . . منذ ذلك اليوم لم تعد المرأة في الملاية اللف بالضرورة حزمة من التفاهة واللامبالاة وانما احيانا حزمة من الاسلحة والمتفجرات والمنشورات . . بالضبط ، كنا نقوم بتهريب الاسلحة للثوار وبتهريب المناشير وغيرها تحت الملاءة اللف التي لا تثير ريبة العسكري الانكليزي . . . ثم كان لا بد وان يقبض على بعضنا . . . وغالبا ما كان المستعمر يطلق سراحنا كي لا يبرز دور المرأة في تحرير بلادها وكي لا تسري العدوى بين بقية النساء . .) . . .

- ناريمان وانيسة اعتقلتا ايضا . . . وانت يا عايدة ؟ . .

Akhawia.net

ـ انا لم اعتقل . كنت احسن حظا منهن لسوء حظي!! . ناريمان خليفة .

أنيسة الصايغ . فوزية محمد جعفر . عايدة يافعي . أربع صبايا في مقتبل العمر ، جميلات ومثقفات ، وليس بينهن من لم تعتقل لمناسبة او لأخرى . . كل منهن تمثل نموذجا حيا . . . للنشاط النسائي ، وهو هنا ليس (نسائيا) بمعنى التخلف عن ركب (النشاط الرجالي) كما هي الحال في اغلب الاقطار العربية الاخرى . . . ان من يتحدث اليهن ويسمع الدور الذي لعبنه سواء في استقلال بلادهن او في تطوير الاحداث التي قادت الى حركة يونيو ١٩٦٩ يشعر بأنه أمام نموذج متطور من النماذج الثورية :

١ ـ قام الاتحاد بتدريب مجموعات من اعضائه على حمل الاسلحة وكيفيةَ استعمالها كما تم تخريج الدفعة الاولى . . . وكما يقول التقرير الاخير لاتحاد نساء اليمن : يقوم الاتحاد بتدريب مجموعات من اعضائه على حمل الاسلحة وكيفية استعمالها ايمانا منا بأن المرأة يجب ان تناضل جنبا الى جنب مع الرجل ضد كل الاعداء الطبقيين لثورتنا الشعبية مستوحية هذا الشعور من المقولة الثورية : النضال بيد ، والبناء بيد اخرى .

٢ ـ استطاع الاتحاد ان يجند كل اعضائه في خدمة محو الامية .

٣ ـ عمل الاتحاد على توعية المرأة فكريا من خلال الندوات والمحاضرات لاكسابها نوعا جديدا في اسلوب التفكير والعمل .

اما على الصعيد الخارجي :

١ ـ دخول الاتحاد كعضو رسمي في الاتحاد النسائي العربي . .

٢ ـ دخول الاتحاد في الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي .

٣ ـ استطاع الاتحاد عبر ممارسته اليومية ان ينقل العمل النسوي من المدينة الى الريف من خلال فتح فروع له في المحافظات . . .

والواقع ان كل ما في التقرير منبثق ومنسجم مع روح ما جاء في الميثاق الوطني للجبهة القومية ومع قرارات المؤتمر الرابع وخطة العمل الوطني الديمقراطي الواحد . . . ولكن ليس في التقرير ما ينسجم وروح ما عرفت به بعض (النشاطات النسائية العربية) من حفلات تنم عن الميول الاستعراضية وتناحر على سرقة الاضواء والكاميرا وتحويل (العمل النسائي) الى كرنفال نسائي لاستعراض آخر فستان وآخر تسريحة وآخر فضيحة .

هذه شهادة حق في نشاط اتحاد نسائي عربي مثالي ، اعضاؤه يعشن في القرن الواحد والعشرين حضاريا ، وهن بذلك الامل الاول في جر بقية نساء الشعب من مواقعهن في القرن السابع عشر . . . ان نساء اليمن المواطنات الواعيات هن نصف الوقود الانساني

Akhawia.net

الذي يلهب جمرة اليمن .

موسيقى عربية بلا نواح

لا ادري لماذا يذكرني الحديث عن المرأة اليمنية الجنوبية بالاستطراد حول موسيقاهم . .

ربما لان الموسيقى والاغاني المحلية التي سمعتها هناك كانت بطريقة ما كالحركة النسائية الفتية : عربية اصيلة خالية من النواح ، فيها تأثيرات افريقية تجعلها مليئة بالحياة والحركة . .

وربما لان الرفيقات عايدة وفوزية وانيسة كن اللواتي رافقنني الى حفل اقيم في الملعب البلدي في حي كريتر لاسمع للمرة الاولى موسيقاهم واغانيهم الحديثة والفولكورية . . وقد احببت ما سمعت وطربت له ، ليس لان الليل كان دافئا وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب كان طريا وموحيا ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة ، احسستني اركض في شواطىء مقمرة عتيقة عرفت امجاد صيادي اللؤلؤ والحقيقة في قاع بحر الوجود ، وما تزال اصداء مجاذيفهم واغانيهم تتماوج بين الصخور . . .

ليس لاي من هذه الايحاءات الجانبية لتلك الليلة المسحورة ، وليس لكرم ضيافة اهل الحفل ، ولكن لما دار في الحفل بالذات .

غنى (عبد الحليم حافظ) اليمن ، المطرب احمد قاسم ليلتها . . . وقد اظلمه حينما اسميه عبد الحليم حافظ اليمن لان اغنيته كانت خالية من (النواح) الذي تتميز به الاغنية (الحافظية) بوجه عام . . . كان فيها حيوية افريقية ، وقرعات طبل انساني البداءة . . . وقد وجدت الموسيقى اليمنية من اقرب الالحان العربية الى الاذن العالمية ليس لخلوها من التطويل والنواح فحسب وانما لحيويتها وسرعة حركتها مع غناها بعنصر (الميلودي) . . . وربما لان الموسيقى العالمية تستلهم الافريقية ايضا بايقاعها وحركتها . . .

وغنى بعد (ابن الجنوب) احمد قاسم ، المطرب احمد عبده زيدي وكان اسم اغنيته « حبيب العمر » ، واظن ان لفريد الاطرش اغنية بهذا الاسم ، مما فرض علي المقارنة بينهما ، وكانت « حبيب العمر » اليمنية خالية تماما من الذل والنواح متوترة ونزقة وأصيلة كنزف شريان قطع للتو ، ونبض شفة جرحه .

لفت نظري ان(الكورس) في الاغنية الوطنية هو دائما من الاطفال ، وهو ابتكار جميل له ما يبرره في صلب موضوع الاغنية الوطنية لانه ليس كالاطفال نقاء وصفاء وبراءة

Akhawia.net

وبالتالي جدارة بالتغني بالوطن .

واليمن بركان يغلي بالثورة ، كأن طبيعة الشعب الثائرة هي امتداد للجبال البركانية الوحشية الجمال ، والثورة هي المحرك الاساسي لحياتهم ، وحتى اذا غنوا فهم يغنون بها ولها ومن اجلها . . . والحفل الذي حضرته لم يكن المقصود منه (التطريب) فحسب ، ولا شرب (النراجيل) وابخرة الدخان مع ابخرة الآهات ، وانما كان حفلا اقامته اللجنة المركزية لمياه الشرب وذلك من اجل انقاذ ٣٠٠ الف مواطن من عنائهم في الحصول على مياه للشرب . . . وقد افتتح الحفل بمقطع مناسب من خطاب مسجل للرئيس جمال عبد الناصر مع اخراج موسيقي جيد !

الأطفال عراة ، والسيارات مكسوة !

ان اية جولة في ريف اليمن الجنوبي مهما قصرت تؤكد حقيقة واحدة : ضرورة الثورة ، بل وحتميتها للخروج بجماهير اليمن من وهاد الفقر والتخلف .

الاطفال في الريف شبه عراة . . . والسيارة التي حلت محل (الدابة) ما تزال في نظر الناس (دابة) وان كانت (دابة من حديد اسرع بكثير) هذا كل ما في الامر ، وهي لا تمثل رمزا حضاريا ولا محرضا ولا أي شيء آخر اكثر من (دابة حديدية) بدليل ان السرج الذي كان يكسو الدابة انتقل ليكسو السيارة وليغطي ابوابها بألوانه المزركشة واقمشته المختلفة ! . . .

ومما لا شك فيه ان الاستعمار البريطاني لعدن بذل كل ما في وسعه لاستغلال امكاناتها دون ان يكلف نفسه عناء حتى شق طريق واحدة تصل بينها وبين بقية المحافظات . . . وهكذا كان علي كي اذهب الى أبين وزنجبار ان إركب سيارة (لاندروفر) تمضي بي تحت رحمة المد والجزر في طريق موازية لشاطىء البحر ، وهي ليست من الطريق في شيء الا بأن السيارات تسير عليها في مغامرة مستديمة على رمل الشاطىء وبين كثبانه . . .

وفي فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين التقيت بمجموعة من الرفاق الجبليين الاشداء ، ابناء جبل يافع ، وجلسنا نحيط بنا صور الثوريين العالميين امثال كاسترو وغيفارا وماوتسي تونغ نتحدث . . وكان في المقر عدد من المقاعد المتواضعة و (كنبة) واحدة ضخمة من (الستيل) لفتت نظري لانها بدت نافرة وفي غير موضعها ، مثل رموش مستعارة على وجه راهبة زاهدة ، وسألت عن سر مقعد الستيل الفخم هذا والذي تتربع فوقه صورة لماوتسي تونغ ، وعلمت انه كان كرسي احد السلاطين .

Akhawia.net

وحدثوني طويلا عن حكاية الصراع الداخلي الذي لم يفسح مجالا للتفرغ الى قضايا هامة تتطلب حلولا جذرية كالقضايا الزراعية . . . وكيف ان قضية الخوف من نزعة الرهبنة الكلاسيكية في الحكم هي المبعث الاول للصراع الداخلي منذ الاستقلال . . . وكيف ان الارياف وحضرموت ظلت خاضعة للقيادات الشابة ، وكيف ان قيادات عدن قبل التبديل (يونيو ١٩٦٩) كانت خالية الا من النوايا الطيبة . . وان تبديل الاطارات الفوقية كان ضرورة لا مفر منها . .

وسألتهم عن أبين ، التي بدت لي بعد رحلة الطريق الشاقة بين الرمال مثل واحة غناء في قلب الربع الخالي . . وروى لي الشبان كيف كانت ثلاثة ارباع هذه المنطقة ملكا لاقل من ثلاثة اشخاص . وكيف كانت قرى بأكملها وبكل ما تحويه ملكا خاصا للسلاطين .

ـ وهل تبدلت حال الفلاح الفقير بعد قانون الاصلاح الذي صدر عقب الاستقلال ؟

ـ لم يتبدل شيء في حال الفلاح المسكين . كان يعمل من قبل لمؤسسة السلطان الفردية ، وصار اليوم يعمل لمؤسسة الدولة ولكن ضمن الشروط البائسة نفسها . . .

كانت العلاقة غير عادلة بين السلطان والفلاح ولكن العلاقة ما تزال غير عادلة بين الدولة والفلاح ، وكان لا بد من اصلاح قانون الاصلاح الزراعي بسرعة . وقال لي احد الرفاق بحزن : الفقير هنا هو من يملك قطعة ارض !! (وذلك للافتقار الى التعاونيات الزراعية والى امكانيات تسويق الانتاج والى الري) . . . أية مهزلة ان تشكو اول بلاد في العالم اتقنت التحكم في مياه الفيضانات والري من الافتقار الى وسائل الري ؟ . . أية مأساة ان تشكو وديان سد مأرب من الافتقار الى الماء وبعد ما ينوف على الألفي عام منذ اقيم سد مأرب للمرة الاولى ؟ . . .

وغادرت الرفاق بعد ان درت معهم في الريف بقدر ما يسمح وقتي الضيق ، وتركتهم يذهبون الى بيوتهم يتابعون شجارهم مع اسرهم لانهم لا يصومون رمضان . . . تركت الشبان يجمعون انفسهم لحضور محاضرة مهندس شاب عاد مؤخرا من الخارج هو بو بكر المعلم ، وودعت الرفاق جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد وكان حديث الوداع بعد عودتنا من قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن خنفر طويلا وكثيفا . . . حدثوني عن المرأة في الريف (لا تعرف الحجاب ولا الكسل . ان المرأة في تعز تعمل طوال النهار ثم تهبط لتبيع منتوجاتها الزراعية في المدينة ، وتعود من المدينة الى قريتها ليلا) . .

Akhawia.net

رقصة الشرح

ومررنا بلوحة اعلانات . . . ولاحظت ان لوحات الاعلان في اليمن هي بحد ذاتها لوحات فنية فولكلورية بألوانها وخطوطها وتشبه الى حد بعيد معارض رسوم الاطفال . . . وسألت : ماذا عن فنونكم المحلية ؟ صنع شباك الصيد مثلا . . . وحياكة الملابس ؟ . . .

- كلها تم الاجهاز عليها بفضل اهمال المستعمر لها ! . .
- ورقصاتكم الفولكلورية . .
- لدينا رقصة الشرح (أي الانشراح) ، ورقصة اللوعة ، (وهي الدبكة اليافعية) ، ورقصة السمرا . . . والطبل دوما ركن اساسي في رقصاتنا كما في افريقيا . . .

وعدت الى عدن من جبال يافع البركانية الخامدة وانا قانعة بأن البركان الذي خمد في احشاء الارض قد استعر في نفوس ابناء الارض . . . وان الثورة في اليمن ليست موضة ولا احتراف ثوار مقاهٍ وانما هي التعبير الحي عن وجود لا يكون الا بالثورة . . . ومنذ آلاف الاعوام كانت اليمن ثائرة على التخلف ، وكانت لها حضارة انسانية مذهلة ما تزال تروى الاساطير عنها ، وما تزال آثارها ماثلة . . .

الماضي العظيم

الاخ عوض عبد الله الجعيدي مساعد ضابط الآثار تكرم بمرافقتي الى متاحف عدن ، وروى لي الكثير عن آثار اليمن واطلعني على صورها ومواقعها حتى احسست اليمن بأكملها متحفا رائعا غير مسور ولم يكشف التراب بعد عن أروع آثار امجاده . . . حدثني عن معبد القمر في حياضة ، وعن حصن الغراب بينما نحن نطوف اركان متحف كريتر . . متحف صغير على بابه مدفع عتيق نائم وقد نام فوقه حارس عجوز بدا لي كأنه والمدفع الاثري من جيل واحد ، وكأنهما صمتا معا وناما منذ زمن طويل . . . متحف كريتر صغير . . . انه قاعة واحدة كبيرة الحقت بها قاعتان صغيرتان جدا . انه فقير المظهر غني المضمون وفيه آثار مثيرة رائعة هي ما تبقى لاهل البلد بعد ان غرف الانكليز منها ما غرفوا ونقلوا ما شاؤوا الى متاحفهم . . . وبعد متحف كريتر رافقني الى متحف التواهي . . . وكان المتحف فارغا من الزوار ـ الا من حارسه محمد حسين ـ وكان مليئا بالتحف الرائعة الجيدة العرض ، وكان واضحا ان المتحف قد بني حديثا ، وانه يصلح نواة لمتحف رائع شكلا ومضمونا . . . وبعد جولة بين التماثيل القديمة والكتابات الاثرية والتحف الفنية الرائعة قررت ان موضوع الآثار يستحق وحده بحثا كاملا ويستحق شهرا كاملا من التجوال في اليمن . . . وكنت في يومي الخامس من اسبوعي اليتيم في عدن . . . لذا

Akhawia.net

ودعت الاخ عوض عبد الله الجعيدي الذي استطاع ان يثير فضولي ، واستطاع ان يجعلني حزينة وآسفة لانني لم اكن قادرة على اكتشاف المزيد من الثروة الاثرية الضائعة في الدوامة الكبيرة التي تعصف باليمن كله . . .

فندق روك . . نكتة انكليزية

ليلتي الاخيرة في عدن دعاني احد الاصدقاء للسهر في روف فندق روك ، اكبر فنادق عدن . . . والليل في عدن انشودة مسحورة آسرة ؛ و (الروف) يطل على الميناء المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ مأساة قناة السويس بحزن . . . وحول الميناء بدت عدن حفنة من الاضواء الملونة المرشوشة بين الجبال وخلف الخلجان . . . كانت تبدو من الجدار الزجاجي جميلة وبريئة وثائرة وغاضبة وتلفت حولي ، وفوجئت بدخول اسرة انكليزة جدا . . . مظهرا وشكلا وسلوكا . . . وكانت الاوركسترا تعزف بحماس مصطنع ، وديكور الجدران اقنعة ذهبية مختلفة معلقة . . . واحسست بحاجة لان انهض واصرخ : سادتي سقطت الاقنعة فغيروا الديكور . . وظلت الاسرة الانكليزية مصرة على تناول وجبتها بكامل اقنعتها وتقاليدها ، وظللت أتأملها دونما محبة ، ان اسبوعا في عدن غنيا بمشاهدة مجموعات من مخلفات الاستعمار البريطاني يكفي ليصاب الانسان بحساسية خاصة ضد (الانكليز) لفترة لا بأس بها . . . وبهذه (الحساسية) كنت اتأمل الاسرة البريطانية السعيدة تتناول عشاءها واتذكر اسرة فقيرة شاهدتها في الريف تنام دونما عشاء . . . وكان اطفالها يحملون الى كوخهم حزم الخشب الثقيلة بدلا من دمى العيد . . .

ثم دخلت الى المكان مجموعة من الشبيبة العدنية ، بالثياب المحلية والقمصان السبور وخيل الي ان الخناجر الحادة تتدلى من تنانيرهم المحلية وجلسوا كومة واحدة من الصلابة حجزت عن عيني نهائيا مشهد الاسرة الانكليزية الضحية : ضحية حساسيتي وحقدي ! . . واحسست بأن الاقنعة الذهبية على الجدران تتساقط كالاسنان العتيقة . . وان موسيقى الاوركسترا تكف عن موسيقاها الهجينة ، وان أيدياًغامضة ترمي بآلاتها الموسيقية الى مياه خليج عدن . . . وان الجرسونات يخلعون ثيابهم المنشاة ليرتدوا ازياءهم المحلية والبسة الميدان . وان الشمس تطلع . . . وان سواعد قوية تحرك السفن النائمة في الخليج . . . وان اغنية بركانية صاخبة تتعالى من ارجاء جمرات الصخور والرمال والشواطىء الملتهبة وان السفن في الخليج تتحرك بجنون ذاهبة آتية . . . وان اليمن ، قد استيقظت كلها حقا على قرع طبول الثورة . . .

Akhawia.net

القاهرة ١٩/ ٢/ ٧١

قراءات في عيون القاهرة من خلال مسرحيتين !

واعود الى القاهرة . . .

القاهرة المتحفزة للحرب كرمح افريقي . . . الجائعة للسلام كعيون الاطفال . . . القاهرة المتوترة كقرعات طبل بدائي عبر المتاريس . . . البريئة كذكرى عرس قروي في الصعيد . . . الغامضة كالشفاه المطبقة لتماثيلها الفرعونية . . . الصريحة كشراع ابيض في صحو النيل . . . القاهرة الرقيقة كحد شفرة ، والقاطعة كحد شفرة . . .

القاهرة الغالية التي لا تشبهها في تناقضاتها واصالتها وخصبها الانساني مدينة في عالمنا العربي . . .

وامامي اربعة ايام فقط اقضيها في مدينة الاربعة ملايين انسان ، اسافر بعدها الى نسيان ما . . . فمن اين ابدأ؟ . . . وماذا ارى وكل ما فيها ينادي ؟ وماذا افعل وانا الشرهة المصرة على رؤ ية كل شيء (لـو استطعـت ، لتسللـت خلف جدران بيوتهـا جدارا جدارا . . . ولعشت مع كل ما يدور في كل زقاق فيها . . . لو . . .) ولكن . . . اربعة ايام فقط . . . فكيف اختزل القاهرة كلها لاعيشها في اربعة ايام فقط ؟ . . . وقررت :

المسرح هو الحل الوحيد . . .

انه ، وخلال ساعات فقط ، وعلى خشبة محدودة صغيرة ، يستطيع ان يحمـل الي مناخ القاهرة النفسي والفكري ، ويطوف بي عوالمها الانسانية دون ان اغادر مقعدي . . .

ولـدي يـاسيـن

هنالك عشر مسرحيات تعرض الان على مسارح القاهرة ونصفها على الاقل يستحق الاكتشاف ويثير الشهية الفكرية .

وقررت ان ابدأ باوبريت « ولدي ياسين » (فرقة تحية كاريوكا ـ شكري سرحان ـ الحان بليغ حمدي ـ غناء عفاف راضي ـ تأليف فايز حلاوة ـ اخراج كرم مطاوع) بعد ان قرأت نقدا للدكتور لويس عوض (جريدة الاهرام) يصفها فيه بقوله : « اننا ازاء عمل فني كبير وخطير ، اولا لانه بداية اصيلة للمسرح السياسي في مصر لم تستجلـب وانمـا صنعت للمصريين من طينـة مصر ، وثانيا لانها بداية اصيلة للمسرح الغنائي في مصر » .

Akhawia.net

ويقول: « ياسين هو جمال عبد الناصر الذي كتبت المسرحية في تأبينه ، ومع ذلك فموضوع المسرحية ليس هذا البشير ولكن بشارته » ، وقد « اقيمت الصلاة في حب الوطن في بيت هذه السيدة الفريدة تحية كاريوكا » ويختم مقاله « انا اطالب بجائزة لهذا العمل الكبير » . . .

وذهبت لارى هذا « العمل الكبير » ، ولن اخفي ابدا خيبتي الكبيرة اثر مشاهدتي له ، خيبتي التي تعادل في كبرها تماما اعجاب لويس عوض بهذا العمل . . .

رغم الضربات الموسيقية الرائعة التي بدأت المسرحية بها بكل ما في المسرح الاغريقي من جلال . . . ورغم لحن « يا بلدي يا بلدي يا مصر » . . . ورغم حضور تحية كاريوكا المسرحي الحسن . الذي لم اكن اتوقعه لانني للمرة الاولى اراها كممثلة - ، ورغم وجهها المصري الاصيل وعينيها الشرستي الالتماع ، السوداوين العميقتين كبئرين فرعونيتين مليئتين بالاسرار . . . ورغم ذكاء النص وبراعته في وصف حال الفقر والبؤس التي يعيشها الفلاحون (البسطاء ولكن الاذكياء) ، ورغم نجاح الاخراج احيانا في تحويلها الى لوحات ، ورغم الفكاهة التي هزت الصالة الممتلئة ضحكا من الانتهازيين الذين يندسون بين الثوار ويسرقون مكاسبهم . . . رغم ذلك كله ، ورغم التسلية التي قد توفرها موسيقى بليغ حمدي وصوت عفاف وحضور تحية واخراج مطاوع ونص حلاوة ،

فإن العمل بمجمله - ان كان بداية للمسرح السياسي والغنائي - فهو بداية خاطئة ، وهو - بنظري - يحمل للمتفرج الجاد سقوطا مفجعا . . . لماذا ؟

لأنه في نظري امتداد للفهم الخاطىء للالتزام في الفن ، ذلك الفهم الخاطىء الذي تجلى في خطابية الكورس وفي خطابية كل ما قاله شكري سرحان (الذي يفترض انه يمثل دور جمال عبد الناصر) . . . بوضوح اكثر ، كان صوت عفاف راضي المشرق الشفاف وهي تغني « يا بلدي يا بلدي يا مصر » تعبر بجمال فني عن كل ما تود المسرحية ان تقوله ، وفجأة يقطعها ترداد خطابي مطول ممل لعبارات يرددها شكري سرحان ومن بعده الكورس بلهجة واعظ في كنيسة القرية ! . . . وتتناثر كلمات (الاشتراكية . . . الوطن . . . العمال . . . الفلاحين . . .) واحس بأن المسرح امتلأ لافتات دعائية ، وبأنني استمع الى تعليق على نشرات الانباء لمذيع فاشل مختص باستعمال كليشيهات الثورية وحب الوطن ، كليشيهات غارقة في السذاجة والخطابية والسجع والتكرار مثل محفوظات قصائد الاطفال في مدرسة عثمانية ! . . . بصراحة ، في هذا العمل هنات كثيرة اذكر بعضها على سبيل المثال (يقول شكري سرحان على لسان البطل القومي المصري - عبد الناصر او

Akhawia.net

سواه ـ والكورس يردد من ورائه ما معناه ان طريق الثورة المفروشة بالاشواك مكتوب علينا ان نسيرها . . . ونلاحظ ترداد كلمة (مكتوب علينا) ، ونلاحظ استعمالها لا بمعنى ان الثورة امر حتمي يخلقه الانسان ، ولكن بمعنى ان ما حدث وما سيحدث هو مكتوب علينا بالمعنى القدري للكلمة ، الامر الذي يجرد عبد-الناصر او الثائر ايا كان من قيمته كانسان عادي ويحوله الى كائن ميتافيزيكي اختارته قوى ما وراء الطبيعة وكتبت عليه ان يكون ما كان . . . (تلك هي النظرة الاتكالية التي تمثل الخطر الاول على الثورة ، وعلى الثوار ايضا ـ حينما يجعلون من زعيمهم وثنا جديدا يرمون عليه بأثقال مآسيهم ويحملونه وحده مسؤ ولية الخروج بهم من مآزقهم) والغريب ان المسرحية نفسها تحذّرُ في مواضع اخرى من هذه النظرة ـ لكنها تسقط بمجملها في هذا الفخ . . . وحتى تحذيرها من هذه النظرة نجده في مواقف خطابية باهتة غير نابع عن جوهر الاحداث بل عن انتفاضة خطابية ميلودرامية . . . ويتضح مدى (قدرية) المسرحية وميلها الى عبادة الفرد حين يتلو الكورس اقوالا من القرآن فالانجيل فمقاطع من اقوال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ! . . . ولست من حيث المبدأ ضد ان اشهد عملا فنيا يدور حول (القدرية) وحول ان البطل الوطني نبي ارسلته السماء قدره (مكتوب في اللوح المحفوظ) لكن « ولدي ياسين » لم تأتنا بنظرة جديدة الى (القدرية) كما لم تسكبها في قالب جديد وانما كانت مجرد تكرار ساذج لما سبق وقيل حول هذا الموضوع منذ عصور وعصور . . .

انها فشلت في هذا كما فشلت في تصوير شخصية الثائر الغيفاري بالمفهوم الجديد لكملة ثائر . . . وشكري سرحان (الذي كان يطوف على المسرح شبه منوم مغناطيسيا يردد كلمات خطابية مملة ، هو اسوأ نموذج لأسوأ مفهوم عن الثورية . . . انه لم يستطع نصا وتمثيلاً ان يرقى الى مستوى الشعر وبالتالي الاسطورة كما انه لم يكن ثائراً غيفارياً حديثاً ولا ثائراً عتيقاً ـ اي نبياً ـ . . . ولم نستطع ايضا ان نرى عبره ذلك النسيج الانساني المسمى بالثورية الذي تمتد خيوطه الواحدة لتجمع بين جميع الثوار في كل عصر . .) اجل ، لن اتوقف طويلا عند هذه الهنات وسواها في المسرحية ـ مثلا ثياب الذين يفترض انهم يمثلون الشعب المصري كانت كأزياء « الموجيك » الذي كان يلبسه فلاحو تولستوي ! . . الحان بليغ حمدي في بعض المواضع التي يفترض انها تصور الثورة كانت مأخوذة عن الزار الذي يصور اقسى حالات الاستلاب الفكري ولا تشفع له هنا فولكلوريته لعدم تمشيه مع النص . . . ـ اتجاوز هذه (الهنات الهينات) كلها ، واتجاوز النقد اللاذع الموجه الى شعب لبنان والمحشور حشراً في سياق المسرحية دون ان يؤ ثر حذفه

Akhawia.net

او تحويره ضد اسرائيل مثلا على المعنى ككل - او حتى كجزء ! - واتجاوز ايضا الغمز واللمز حول زراعة الحشيش بلبنان ، اتجاوز هذا لاقول ان الفخ الاساسي الذي سقطت فيه المسرحية - الاوبريت هو الخطابية . انهم لم يقدموا لنا مسرحية ولم يتركوا بليغ حمدي يقدم لنا اوبريت . . . ومن آن الى آخر يشعر المتفرج بأنه في طائرة تشكو من خلل . . . لا يكاد يستقيم لها الطيران حتى تهوي من عل في مطب يكاد يودي بها الى الدمار . . . وهو في نظري قد اودى بها الى الدمار . . . واسم هذا المطب كما ذكرت : سوء الفهم لمعنى الالتزام في العمل الفني . . .

توقفت طويلا عند هذه النقطة المشكلة لانها مرض لا تعاني منه هذه المسرحية وحدها ، بل ظاهرة وبائية تفشت في النتاج العربي منذ كانت الثورات التقدمية . وباء هو نتيجة مباشرة للفهم الخاطىء للفكر الثوري . . . ونتيجة مباشرة لالصاق الشعارات على مضمون رجعي . . . بعبارة اخرى ، ان تضمين مسرحية ما مقاطع ثورية من خطب اي ثوري مثل جمال عبد الناصر او غيفارا لا يجعل منها مسرحية ثورية . . . وان ذكر اسم مصر بخشوع قد يصنع صلاة في محراب مصر لكنه لا يكفي لخلق عمل فني ناجح عن مصر وثوارها . . .

والواقع ان الفهم العربي العام للفن قد ساء كثيراً لاننا صرنا نقيس الاعمال الفنية بقيم لا تمت الى الادب بصلة . . . ومن الامانة العلمية ان اعترف الدكتور لويس عوض في معرض نقده لهذه المسرحية : « ربما كنت لا اكتب نقداً لمسرحية ياسين ولدي لاني منحاز لمصر والمنحاز اسير هواه » ، ومن الامانة العلمية ان اقرر انا ايضا انني منحازة للفن اكثر من انحيازي لاي شيء اخر وانني لذلك قد اكون تحاملت على هذا العمل بقدر ما هادنه الدكتور عوض .

ولكنني وجدت ان من واجبي ان اعيد الى الاذهان اهمية تقييم العمل الفني من حيث هو صالح للبقاء كعمل فني ام لا ايا كان الموضوع الذي يطرقه . . . صيحة ايا كان ، وليس بالحب الاعمى وحده ولا بالالتزام اللفظي يكون الابداع . . .

الجنس الثالث : تأليف يوسف أدريس

اهمية هذه المسرحية هي في انها عمل فني جيد . هذا اولا . فقد استطاعت المسرحية ان تنجو من المزلق السابق الذي سقطت فيه « ياسين ولدي » والذي يسقط فيه معظم نتاجنا العربي الفني المعاصر . مسرحية « الجنس الثالث » لا تتوكأ على شعارات فلسطينية او غير فلسطينية ، ولا تركب الموجة الحالية الرائجة : موجة النقد السياسي . . .

Akhawia.net

انها تدور حول ذلك الموضوع الازلي القائم ابداً في الثورات وفي الحرب وفي السلم . . . انه موضوع (الحب ـ الحياة) . . . واقدام فنان على معالجة موضوع (الحب ـ الحياة) ليس جديدا ولا يستحق التهليل عادة ، لكنه في توقيته الحالي يسجل ظاهرة معافاة فنية تستحق التوقف عندها . . .

فبالاضافة الى سوء فهم معنى الفكر الثوري والالتزام جاءت هزيمة حزيران لتزيد من التشويش . . . واقر بعدها أهل الفكر والفن بأن مسؤ ولياتهم عن الهزيمة تعود الى نتاجهم غير (الملتزم) . . . وهنا ازداد سوء الفهم الخاطىء لكلمة ملتزم ، وظن كل من يحمل قلماً ان الالتزام يعني تطعيم نتاجه بكلمات ثورية ووطنية . . . وقلائل ادركوا ان الالتزام يعني التزام الصدق والتزام البحث عن الحقيقة وقولها ، وليس التزام تكرار الشعارات تكراراً ببغائياً يحول الفنان الى استاذ فاشل في مدرسة يهرب طلابها . . .

وهكذا كنا قبل هزيمة حزيران غارقين في نتاج اكثره تافه يدور حول الحب فصرنا بعدها غارقين في نتاج اكثره تافه يدورحول الوطن . . .والنتاج التافه يظل تافها ولا يشفع لتفاهته الموضوع الذي يطرقه . . .

وهكذا تأتي « الجنس الثالث » لتذكرنا بأن العمل الناجح فنيا هو مطلبنا الاول ، وانه وان لم يحم حول فلسطين وسيناء والحرب ، لكنه لما فيه من نبش للانسان كانسان يجعل المواطن اكثر قدرة على فهم ذاته وعلى تحديد موقعه من مجتمعه وعالمه ، وبالتالي يساعده على ان يكون ثائراً واعياً مفكراً دون ان يعظه ودون ان يثير مله . . . (من المؤسف ان يتردى حال الفكر لدينا حتى اجدني امتدح الاديب بالبديهيات التي يفترض ان تكون فيه . . . تماما كما قد نمتدح الموظف بأنه لا يرتشي والجندي بأنه لم يفر من القتال !) . . .

ويظل أهم ما في المسرحية ـ في نظري ـ هو انها مسرحية جيدة كعمل فني . . . انها تتضمن رؤ يا جديدة لموضوع ازلي (الارادة ـ الحياة ـ الحب) دون ان تنفصل عن عصرنا الحالي عصر الانزيمات (واختراعات اعادة الحياة للموتى) ، ودون ان تنفصل ايضا عن كونها مصرية اصيلة (ألم يكن موضوع اعادة الحياة الى الموتى شاغل الفراعنة ويقينهم الذي عبروا عنه بلغة عصرهم في صورة التحنيط ؟ ألم تكن الاهرامات المخابر الاولى في التاريخ المعدة لاستقبال العائدين الى الحياة ؟) . . .

تدور المسرحية حول عالم شاب هو آدم (للاسم دلالة رمزية ـ انه رمز لجنسنا البشري المعروف) ومساعدته ناره ، آدم يعمل من اجل اختراع (انزيم الحياة) . . . فهو يؤمن بان الموت هو عملية ارادية . . . وبأن الانسان يفقد تدريجيا رغبته في الحياة فيتكون

Akhawia.net

في جسده انزيم الموت حتى يقتله . . . وآدم يحاول ان يكتشف الانزيم المضاد ليحقن به البشر ويعيد الحياة الى الموتى . . .

وفي نهاية المسرحية نجده يكتشف الانزيم، ويعيد به «ناره» الى الحياة (كما اعاد اورفيوس زوجته الى الحياة من ارض الموت بانزيم اسمه الموسيقى) واسم هذا الانزيم « الحب » وهو لا يصنع بالعمل وحده وانما ايضا بالارادة وبالادراك لاهم اسرار الوجود : الحب . . . وآدم حتى يصل الى هذه المعرفة يمر باهوال كتلك التي مر بها (فاوست ـ جوته) حين باع دمه للشيطان كي يشتري المعرفة الكلية باسرار الوجود . . . لكن « فاوست » يوسف ادريس المدعو آدم ، لا يبيع روحه للشيطان وانما يكتشف اسرار الوجود على يدي قابيل (الذي قتل اخاه هابيل) ومن يومها وهو نادم ومن يومها وهو يبحث عن طريقة لخلاص العالم بعد ان ابيد منه الجنس الثاني الطيب ، جنس هابيل القتيل (رمز الخير والحب) . . . الانقاذ الوحيد يكون بتوالد (جنس ثالث) يختلف عن الجنس البشري القائم . . . اهم صفات هذا الجنس الثالث هو الحب (القدرة على استقبال الحب واعطائه) . . . ومن اجل ذلك كان لا بد من محاولات كثيرة . . . (الرسل والثوار والفنانون الكبار ليسوا الا مبعوثين من عالم الجنس الآخر المليء بالحب . . . باختصار كلهم افراد في « جمعية تحضير الانسان » لا « تحضير الارواح » . . . ان استحضار الانسان من داخل ذاته ، الانسان بالمعنى الحقيقي للكلمة لا يتم الا عبر الحب (ايضا بالمعنى الشامل للكلمة) . . . في نظر يوسف ادريس الحب هو خلاص هذا العالم (مثل كولريدج في رائعته البحار العتيق ، حيث يروي لنا حكاية بحار يرتكب جريمة قتل اذ يقتل احدى مخلوقات الطبيعة (طير الباتروس) فيعاقب باللعنة الكبرى ويموت بحارة مركبه ويصير البحر جثة ويعوم هو وحيدا في المركب التابوت المتحرك حتى يكفر عن خطيئته حينما يحس بومضة حب تجاه احدى مخلوقات البحر الدقيقة الصغيرة) . . . المهم لحظة حب صادقة ومجانية . . . آدم هو « البحار العتيق » عند يوسف أدريس ، وكما يعود الى الحياة جميع بحارة المركب حينما يحس البحّار العجوز بلحظة الحب وتسقط من عنقه جثة طائر الباتروس التي علقت هناك منذ الجريمة (سقوطها رمز الى خلاصه وخلاص العالم الذي يمثله رجال سفينته النوحية) ، كذلك فان « آدم » يوسف ادريس اذ يجد خلاصه ، لا يمثل خلاصاً فردياً ، واتحاده بناره لا يمثل اتحاداً شخصياً وانما هو رمز لخلاص البشر جميعا عبر اختراعه (انزيم الحياة) ، وما انزيم الحياة هذا الا (الحياة بحب) اي الحياة عمراً قد لا يكون أطول لكنه أعمق مشاعر واكثر نبلاً . . . . انها حياة لا مجرد عيش . . . .

Akhawia.net

والمسرحية تحمل خيوط فلسفة تكاد تكون متكاملة وقد يتضح نسيجها بجلاء في الاعمال المقبلة ليوسف ادريس . . . في « الجنس الثالث » رؤ يا جديدة « للمدينة الفاضلة » . . . وليوتوبيا يصنعها « الجنس الثالث » . . . والجنس الثالث لديه هو (السوبرمان) المطلوب من الانسان ان يتطور اليه . . . لكن (السوبرمان) عنده ليس رجلاً آلياً من كومبيوتر عصر الفضاء ولا من سكان كوكب جديد ، وانما هو ردة الى الانسان الاول ، الانسان الحقيقي قبل ان تكون الخطيئة والجريمة والشر . . .

« الجنس الثالث » عند يوسف ادريس لا يشبه سوبرمان برناردشو ، ولا يمت بصلة الى سوبرمان نيتشه اللاإنساني الوسائل ، كما انه بريء من سوبرمان اسبارطة (كانوا في اسبارطه يغطسون الطفل المولود حديثاً في دن من النبيذ ليموت ان لم يكن قوي البنية جسديا) . . . صحيح ان حلم يوسف ادريس بالانسان الافضل والعالم الافضل ليس جديدا ، وان وسيلته ليست جديدة (الحب) ، لكن رؤ ياه لمفهوم الحب والارادة جديد . . . وصحيح ان مفهوم الحب لديه يقترب من المفهوم المسيحي لكنه يتجاوزه كما يتجاوز الرؤ يا الدينية للحب التي تجعل منه سببا للثواب او العقاب . . . ففي معبد (السوبرمان) يقول كائن يوسف ادريس (اننا نعبد بعضنا بعضا . . . كل شيء او كائن فينا يعبد الآخر) وهو في هذا قد يلتقي بالفلسفة الوجودية او حتى بالرؤ يا (الهبية) المعاصرة ، الا ان يوسف ادريس يظل فريداً في رؤ ياه لانه لا يلغي اثر الارادة . . . في المسرحية يتمكن آدم من الطيران تماما كالطيور لمجرد انه اراد ان يطير ، وحينما يبدأ بالشك في ارادته يعود الى الاقتراب من الارض . . . وفي المسرحية نجد آدم حينما يكاد يموت جوعا يتعلم من (الجنس الاكثر رقياً انسانياً) كيف يستعمل ارادته لاستحضار الطعام والاكل (اي خلق حس بالشبع عبر الارادة) . . . ونراه على المسرح وهو يأكل الدجاجة الوهمية ويمضغها والجمهور لا يرى دجاجة ولا حساء . . . هذا المشهد يذكرنا بفيلم (بلو اب ـ الانفجار ـ لانطونيوني) الا انه ليس تقليدا له . . . ففي فيلم انطونيوني نرى البطل يلعب التنس بكرة وهمية كما أكل آدم فرخة وهمية ـ لكن مدلول لعبة التنس الوهمية هي هنا (الحقيقة مثل الوهم . . . لا فرق . . . كل شيء سراب بسراب . .) اما فرخة آدم الوهمية فترمز الى ان « الحقيقة هي الارادة » وهذا الالحاح على الارادة (العمر ارادة) هو في نظري (توعية ثورية) اكثر من عشرات المناشير وخطابات الحث على العمل المليئة بالكليشيهات . . .

وقبل ان اختم حديثي عن هذه المسرحية احب ان انوه بالرؤ يا الجديدة للحب التي

Akhawia.net

ابدعتها رؤ يا يوسف ادريس الفنان حيث جعل ناره تحب ارنب الاختبار الـذي تجـري تجاربها عليه ، وتنشأ بينهما علاقة وجودية عميقة . . .

هذه الرؤ يا في نظري جديدة لم يأت بها اي فنان عربي او غربي من قبل (هنالك قصة الراهب الذي عشق عنزته وعاشرها لكن مدلول العشقين يختلف تماماً) . . . حب ناره للارنب امكانية درامية مذهلة لم يعن بها ما فيه الكفاية المؤلف وربما المخرج . كلاهما سقط في فخ اضحاك الجمهور من العلاقة (الممثلة بشكل خاص اساءت ايضا التعبير عن ذلك فبالغت في الاضحاك في البداية ، مما جعل انتحارها في النهاية لاجل مصرع الارنب يبدو ميلودراميا ومفتعلاً . . .)

ان علاقة ناره والارنب كانت في نظري اصدق واعمق علاقة حب في المسرحية تعبر عن وجهة نظر الكاتب نفسه (انها ضمناً ردة الى مبدأ وحدة الوجود وزواج شعاع الشمس مع زهرة الفل . . . الذي لا تخلو منه المسرحية) . . . هذه العلاقة الهامة لا ادري لماذا مر بها الجميع (من مؤلف ومخرج وممثلة وبالتالي الجمهور) مرور جيش هولاكو في حقل من السنابل . . .

وهذا يقودنا الى الحـديث عن الاخـراج . . سعـد اردش مخـرج مبـدع اكثـر ممـا يجب . . . وبقدر ما اعني كلمة مبدع اعني كلمة اكثر مما يجب . . . لماذا مثـلا تطـويل مشهد الباليه ورقص الشجر حتى اكل الرقص مدة نصف ساعة تقريبا من الفصل الاول بلا مبـرر ، وكان الـرقص يتـراوح بـين البـاليه والـرقص البلـدي (هـزي وسطـك يا شجرة . . .) ؟ هل خاف سعد اردش من الجمهور فأحـب ان يرشـوه بالخصر النحيل والقوام الجميل وهز يا وز ؟ تراه على حق في مخاوفه ؟ ايا كانت الاعذار اكره دوماً ان ينحر الفن على اي مذبح كان ، لذا سألت الدكتور يوسف ادريس عن مبرر التطويل (غـير الموجود في النص اصلا) فقال : انت لا تعرفين جمهـور مصر . . . انـه يأتـي دومـا الى المسرحية بعـدنصف ساعتهـا الاولى ، لذا نقـدم الـرقص كي لا يفوتـه شيء ! . . . رد عجيب . . . ترى هل يعاقب سعد اردش المتفرج الجاد الذي يأتي مبكرا بهـذه البـاليه (البلدي)؟ . . . ام انه يحاول ان يجتذب المتفرج المتأخر ؟ . . . واذا كان هذا هو المقصود ، لماذا لا يعلنون عن وصلة رقص بلدي تقدم قبل بدء المسرحية بدلا من حشرها في سياق عمل جاد كمسرحية يوسف ادريس .

وبعد ،

تحدثت عن مسرحيتين ، تعكسان الشيء الكثير مما يدور في القاهرة وفي سماء **الفكر**

Akhawia.net

في اية عاصمة عربية اخرى . . . (كأن ابرز ما في الوحدة العربية هو وحدة مشاكلها وامراضها) . . . وفي يقيني ان في كل عاصمة عربية تدور الآن مسرحيتان كهاتين المسرحيتين «ولدي ياسين» التي تضم قاموسا لغويا ثوريا ناحرة الفن على مذبح الخطابة التعليمية . . . و « الجنس الثالث » التي لا تضم كليشيه ثورية واحدة ، لكنها عمل فني ثوري حقيقي ناجح يطرق بجرأة موضوعات المسرح العالمي ويحلق فيها . . . وهو بذلك يقدم خدمة حقيقية لمصر والوطن العربي . . . فالابداع هو الالتزام والالتزام هو الابداع وكلاهما لا ينفصل كالتوائم الملتصقة . . .

Akhawia.net

لندن ١٨/ ٦/ ٧١

قصة رعب حقيقية

ربما لان العاشق يعود دوما الى الشوارع والمدن التي عايشت حبه الكبير العتيق ، يلملم عن ارصفتها بقايا ماكان .

وربما لان المجرم يعود دوما الى مكان جريمته ، وربما لأسباب اخرى أعيشها واجهلها ، اجدني دوما اعود الى لندن بحنين العاشق وشراسة المجرم .

جون . ناتالي . كريستوفر . جوانا . هنري . وجوه تقفز بين الغيوم وعلى جناح الطائرة وانا في طريقي الى لندن. اسماء رفاقي الذين عشت واياهم طيلة عامين خلال اقامتي في لندن . كنا نعيش في دار واحدة ، وكانوا من الهيبيز ، وكنت امرأة من الشرق تعايشهم قليلا ، وتراقبهم كثيرا . طيلة هذين العامين عجزت عن ان اكون هيبية محترفة . . . كنت سائحة في دنياهم الهيبية ، يربطني اليهم افتقاري الى اي شيء يربطني بأي شيء آخر ! . . . عايشتهم لانني كنت ابحث عن انتماء فكري غير الانتماءات التقليدية الموروثة والتي كان من المفروض ان تنتقل الي بفعل قانون الوراثة الآلي (السائد في عالمنا العربي كما في كل المجتمعات النامية والمتخلفة) ، والذي رفضته ، وانطلقت في العالم الواسع بحثا عن هويتي الحقيقية ، وعن بديل فكري . وطبعا لم اجد البديل لدى رفاقي الهيبيين هنري . جون . ناتالي . كريستوفر . . . ولكني لم اجد غرفة فارغة للايجار الا في دار تصادف ان ضمتني واياهم ، وكان كل منا يقطن احدى غرفها . رفضتهم فكريا (بل انهم كانوا يثيرون سخريتي وحتى شفقتي في بعض الاحيان خصوصا بعد حفلات المخدرات مثل الماريوانا و « ال . اس . دي » حين كان كريستوفر يبكي وجوانا تحاول الانتحار وهنري يرفض استعمال اللغة ويصر على العواء مثل ذئب وحيد تائه في الصحراء وناتالي ترقص مسعورة لتطرد روحا شريرة تؤمن بأنها قد تقمصتها ثم ترجو جون ان يجلدها ليساهم في طرد الروح الشريرة منها ، وجون يتقمص دور الكاهن الاكبر ويمارس عقدة العظمة والسادية لديه ببسط سلطانه على رفاقه الماسوكيين . . . وانا وحيدة مكومة في احدى الزوايا جامدة مثل تمثال بوذا ارقب العذاب البشري والانهيار الداخلي في اكثر صوره ايلاماً ، ثم اهرب من هذا كله لاسير طويلاً في الشوارع اغتسل بالمطر والريح) .

Akhawia.net

ومع ذلك احببتهم رفاقي الهيبيين رغم رفضي الفكري لهم . كانوا نماذج انسانية ممزقة ضالة . ويوم غادرت لندن ، حملت معي مفتاح باب دارنا المشتركة في لندن ، واحتفظت به كذكرى .

وصلت الطائرة الى مطار لندن ووصلت انا الى قرار : سوف ارمي حقائبي في الفندق واذهب اليهم مباشرة وافاجئهم بقدومي ، وساستخدم المتفاح الذي ما زلت احتفظ به .

وفي الطريق اليهم بدأت اتخيل كيف سأجدهم ؟ وتصورت كل ما لا يخطر ببال . . . كأن اجد جون النمرود وقد صار موظفاً في بنك ، وناتالي متزوجة وحاملا وكريستوفر حارسا ليليا وجوانا راهبة وقد جلسوا جميعا الى مائدة العشاء الانكليزية التقليدية يتمتمون بصلاة الشكر ، وحينما افاجئهم بالدخول يتابعون صلاتهم بكل وقار ثم يحيونني بكل برود ورصانة ويطالبونني باعادة المفتاح لان في دخولي هذا خرقاً لقواعد البروتوكول . . . اجل . حتى هذا توقعته . بل توقعت ان اجدهم قد رحلوا او انتحروا وان اجد في الدار غرباء لا اعرفهم . . . ولكنني لم اتوقع ان اجدهم كما وجدتهم ! . .

غرفة الضياع

رميت بحقائبي في الفندق ، وذهبت الى الدار اياها ،أدرت المفتاح في ثقب الباب بحذر سارق يتسلل . كان هدوء مريب يخيم على الشقة ، وعتمة شاملة تغرق الردهة المؤدية الى غرفة الجلوس حيث كنا نجتمع فيما مضى.ولانني لم اسمع صوتا ،ولم المح نوراً، كدت اغلق الباب واعود لولا الرائحة القوية التي كانت تفوح في الردهة والبيت كله. في البداية ظننتها غازاً هيبيا سرياً خاصاً بالانتحار ، ثم تبينت فيها مزيجاً قوياً من البخور والحشيش . . . تقدمت من الصالة ، ورأيتهم جميعا ومعهم اشخاص ـ لم اتبينهم ـ في النور الاحمر المعتم والخافت . كانوا جالسين في حلقة وايديهم ممدودة الى الامام ومسترخية وعيونهم مغلقة . . . ربما كان ذلك النور الدامي كلون الدم المخثر ، وربما كان ذلك التعبير النابض بالتوتر والذعر والانتظار المرتسم في وجوههم هو الذي جعلني اراهم وكأنهم جثث مغسولة بالدم . . . رأيت كل ما في الغرفة مغسولا بالدم . . . الستائر التي تغطي الجدران والتي لم تكن هناك من قبل ، وآلة التسجيل التي كانت تصدر أصواتاً هي أقرب الى صرير أبواب المقابر الصدئة منها الى الموسيقى . . . والزهور الكبيرة الحجم التي كانت تتوسط حلقتهم . . . والرسوم العجيبة على اجسادهم شبه العارية وعلى الجدران . . . بعضها تشبه أبجدية العصور الحجرية (اكتشفت فيما بعد أنه من المفروض أنها ابجدية الأرواح !) وبعضها صور غريبة عجيبة لم أتبينها وهي مغسولة بالدم هكذا

Akhawia.net

(اكتشفت فيما بعد أنها نسخ عن صور فنية ثمينة تحتفظ بها متاحف اوروبا بعضها يصور ساحرات العصور الوسطى أثناء اعدامهن حرقاً ، وهو العقاب المعروف للساحرات خلال العصور الوسطى) . . .

لم ادر كم طالت وقفتي وصمتهم ، ثم سمعت صوت جون يتمتم بلغة اقرب الى اللاتينية منها الى الانكليزية وبصوت منخفض ، وفهمت من لهجته انه ينادي شخصا ما برقة الدراكولا (مصاص الدماء) حينما يقترب بشفتيه من رقبة ضحيته . ثم تبينت ان الاسم الذي كان يناديه هو اسمي انا . ولما كنت متأكدة من انه لم يرني وانا في وقفتي الذاهلة امام الباب ، كما لم يرني احد منهم ـ وكلهم مغمض العينين ـ ، احسست برعب حقيقي وبرغبة في الهرب، . . . لكن الدهشة والرعب سمراني في مكاني ، والرائحة النفاذة كادت تخنقني ووجدتني عبثا اغالب سعالي . . . لم يفتح احد عينيه وانا أسعل . ناتالي فقط (وكان وجهها مقابلا للباب حيث وقفت) فتحت عينيها ببطء ، اتسعتا فجأة وهي تراني وندت عنها صرخة مروعة ثم سقطت على الارض وقد اغمي عليها . لم يتحرك احد ليسعفها ، فقط فتحوا اعينهم وطبعاً رأوني . ولكن احدا لم يتحرك من مكانه . ايديهم بدأت بالارتجاف بشدة ، وبدا في عيني جون بريق النصر . . . وقال بصوت حازم لكنه ناء ولاهث مثل لهبة شمعة امام جثة مسجاة في كنيسة قديمة متآكلة الجدران : يا روح غادة . . . يا روح غادة . . . نناديك . . . (وهنا وعيت الحقيقة المذهلة : انهم يستحضرون الارواح . . . وروحي انا بالذات ! يا لسخرية المصادفات) تابع : منذ شهرين نناديك كما ننادي ارواح احبائنا الاحياء والاموات . . . (احسست برغبة مفاجئة في ان انفجر ضاحكة . ضحك مرادف للبكاء ! . . .) .

تابع جون بالصوت نفسه : يا روح غادة اين انت الآن ؟ ومتى رحلت عن هذا العالم ؟

ـ انا هنا . معكم كما ترون . لم امت بعد .

ولكنهم كانوا متأكدين من ان شبحي هو الذي معهم ! اذ ان احدا منهم لم ينهض لتحيتي وانما اغمضوا جميعا اعينهم وازدادوا خشوعاً وتابع جون :

ـ اين تقيم روحك الآن ؟

ـ في بيروت مع زوجي وطفلي !

ـ كيف جئت الينا من العالم الآخر ؟

ـ بطائرات الميدل ايست ! . . .

Akhawia.net

ـ ايتها الروح لا تهزئي بنا . قولي لنا ماذا تفعلين الآن ؟ .

ـ عدت للاقامة بلندن اراسل مجلة « الحوادث » !

ـ ايتها الروح لا تسخري منا اخبرينا على الاقل ، هل حللت في جسد جديد أم بعد ؟ ام ان هذا لن يحدث ؟ هل انت الآن هرة ام صخرة ام طفل ؟

وانفجرت : انا الآن غبية تنصت الى ترهاتكم .

وسارعت الى زر النور الذي ما زلت اعرف مكانه . . . ادرته وانا اتوقع ان اضيء الغرفة . بدلا من ذلك ، انصبت من السقف اضواء (بسيكيداليك) ، بيضاء ، زرقاء ، صفراء ، حمراء ، تضيء وتنطفىء متلاحقة مجنونة ، وفي نورها المتقطع الحاد والعتمة التي تليها احسست ان اولئك الذين امامي هم حلقة من الارواح الشريرة المخيفة التي فقدت رشدها ، وانا التي استحضرتها حين ادرت المفتاح الذي اغتصبته في قفل باب لم يعد لي . . . واقتحمت عالما ليس عالمي . . . سمعت صراخاً ما . . . شعرت بما يشبه الزلزال ، كان واضحاً انهم تحت تأثير مخدر ما ، وانهم لا يعرفون ما يفعلون ، وانهم لن يصدقوا انني ما زلت احيا وان ما يقف امامهم هو انا وليس شبحي . . . انهم ببساطة يعتقدون ان روحاً شريرة تحتلني او شيئاً من هذا القبيل . . . وكدت اقترب منهم واحداً واحداً وألمسهم ليتأكدوا من كتلتي الفيزيولوجية وحضوري الجسدي ، لكنني خشيت ان يفسروا ذلك على انه تقمص في جسد يريد بهم شراً . . . ومن يدري ، فقد يغرسون في رقبتي سكينا او يجلدون جسدي ظانين انهم بذلك يحررون روحي من اسرها . . . وبسرعة قررت ان هذا الوقت ليس افضل الاوقات للتفاهم . . . وهربت مذعورة . . . وانطلقت اركض من الدار كالمجنونة وقد تركت الباب مفتوحاً . . .

لم اتصل بهم في اليوم التالي . كنت ما ازال تحت تأثير الصدمة ـ اكثر منهم ! ـ بعد هذه الحادثة بخمسة ايام اتصلت بهم تليفونيا اولا لاقناعهم بانني لست روحا (فالارواح لا تستعمل الهاتف في الساعة التاسعة صباحا) . . . وكم كان ذهولي حين ردت علي ناتالي وهتفت بحرارة : لقد استحضرنا روحك منذ ايام . اغمي علي حين ظهورك لكن بقية الرفاق سيحدثونك عما دار . . . متى وصلت الى لندن ؟ . . .

باستسلام اجبت : منذ دقائق ! . . . وانا قادمة الآن لزيارتكم .

في طريقي اليهم رميت بمفتاحي في نهر التايمز . واشتريت سندويشا وقرعت جرس الدار وانا اقضم السندويش زيادة في التأكيد (فالارواح لا تأكل السندويش) . . .

كانوا جميعا في انتظاري وقد استيقظوا ـ رغم ان الساعة لما تبلغ العاشرة صباحا ـ بل

Akhawia.net

ان كريستوفر غسل وجهه اكراماً لي وجوانا مشطت شعرها . . .

اما هنري فقد كان يكرر بذهول : اما قلت لكم ان الكومبيوتر ضروري لتحضير روحها ! (وهنري كان طالبا سابقا في جامعة لندن واختصاصيا في الكومبيوتر قبل ان ينكبه الدهر بالهيبية) . الكومبيوتر وتحضير الارواح ؟ . . . الكومبيوتر ذروة التقدم العلمي ، وتحضير الارواح ذروة الردة الى عصور ما قبل الآلة . . . ماذا يمكن ان يربط بينهما ؟ . . . بل من يجرؤ على ذلك غير الهيبيز ؟ (ام ان هنالك علاقة مبهمة بين ذروة البدائية وذروة الحضارة ، نقطة التقاء على محيط دائرة الحياة ؟) رد هنري بثقة : بمعونة صديق لي استطعت استعمال كومبيوتر الجامعة واستشرته في افضل الاوقات لاستحضارك . وقال انه بين ١٥ ايار و١٥ اب . وقد صدق .

ما هي المعلومات التي اعطاها للكومبيوتر ؟

انها مواعيد رحلاتي السابقة الى لندن واقامتي . وهنا سألته بالحاح : هل سألت الآلة حرفيا متى تستحضرون روحي ؟ قال : ليس تماما . في المرة الاولى سألتها ذلك ، فاجابت : السؤال غير واضح . واضطررت لتحويره من « استحضار » الى « حضور » وكلاهما « واحد »

(طبعا ليس صحيحا ان كليهما واحد . فالكومبيوتر اجاب عن موعد « حضوري » بناء على المعلومات التي القمته اياها عن سوابقي وهو بريء من حكاية استحضاري) . . .

وتحدثنا طويلا . . . وغادرتهم لاكتشف لندن جديدة لم تكن هناك ايام اقامتي فيها : انها لندن تحضير الارواح ! . وذهبت الى اكثر من حفلة لتحضير الارواح بعضها على الطريقة الهيبية وعلى الطريقة التقليدية . . . وخرجت منها بالنشرة الاخبارية الروحية التالية . .

الارواح بين الهيبية والكلاسيكية

تحضير الارواح في لندن هو اليوم موضوع الساعة اكثر من السوق الاوروبية المشتركة وتبديل العملة .

وقد ساعدني احد الاصدقاء المقيمين في لندن على حضور حفلة تحضير ارواح على الطريقة الكلاسيكية (في بيت بحي هامر سميث) لاقارن بينها وبين الطريقة الهيبية . . . تحضير الارواح الكلاسيكي وقور ، هادىء ، لا مخدرات فيه ولا عري ولا هستيريا اضواء ولا موسيقى جماجمية . . . لم تنتقل اليه عدوى الطريقة الهيبية الا في احضار الزهور والاكثار منها في القاعة . ولا يتم فيها الا استحضار ارواح الاموات . والروح تتحدث

Akhawia.net

عبر كتابة تخطها .كأس تتحرك تحت يد الوسيط او سلة او قلم (من المفروض انها هي التي تحرك يد الوسيط وان الروح هي التي تحركها . . في هذه الجلسة حدث شيء مثير (يجب ان يكون له تفسير علمي ما. . ،اذ استحضروا روح صديق لهم مات منذ مدة اسمه « برنار » كانوا يدلعونه باسم « بيف » . وقد نادى الوسيط على برنار ، وحينما حضرت الروح - اي تحركت الكأس - سألها الوسيط : ايتها الروح ، من انت ؟ كتبت الكأس وسط ذهول الجميع حروف اسم « بيف » . . .)والجدير بالذكر ان الوسيط لم يكن يعرف ان « بيف » هو اسم الدلع الذي كانوا ينادون به برنار .

المهم ، فسروا لي ذلك كله فيما بعد وتظاهرت بالذهول كي لا اغضبهم وكي يتابعوا معي جولة اكتشاف كاباريهات استحضار الارواح . . .

اما الهيبيز ، فلديهم طريقة اخرى جديدة . . . فهم يسخرون العلم وغير العلم لاغراضهم .

وبعد ان استخدم الهيبيز الكومبيوتر ليختار لهم حبيبات وليلعب دور الخاطبة ، جاء دوره ليلعب دور وسيط الارواح . انهم يستشيرونه في توقيت استحضارها ، وفي اختيار الروح التي يحتمل حضورها اكثر من سواها ، ثم استخدموا اختراع الكهرباء الذي من المفروض انه وجد ليطرد الظلام : ظلام الليل وظلام الخرافات ، فجعلوا منه اضاءة (بسيكيداليك) هستيرية تثير الاعصاب وتزيد في استعداد الانسان نفسيا للهلوسة . . . وهنا يأتي دور المخدرات التي تستخدم - في رأيهم - كواسطة لنقلهم الى منتصف الطريق بين الحياة والموت ليقابلوا الروح هناك . . . فالمخدرات في نظرهم تساعد الانسان على التخلص من جسده المادي (الحقير) ، وتطلق روحه في عوالم ما وراء الطبيعة ، ويقدر بواسطتها على التحليق الى تلك الاصقاع الغامضة حيث الحدود ، بين الموت والحياة . . . وفي ذلك اللقاء على الحدود ، بينما اسوار الحياة تفصل بين المتحاورين (هم ، والروح التي يخاطبونها) ، صحيح ان اللقاء يتم كالاحلام شاحباً ومشوشاً والحديث يصعب التقاطه ، مثل محاولة التقاط محطة اذاعية من عالم آخر لا نعرف على اية موجة تبث ومع ذلك فهم يجدون في المخدرات ما يساعدهم على هذا الاقتراب الى حد ظهور شبح الروح مجسداً ! . . . (كما ظهرت انا !) . . .

والتفسير المنطقي الواعي لذلك هو ان المخدرات وما تخلقه من هلوسات تجعلهم يتخيلون ان الروح المستحضرة قد حضرت فعلا . . . ويتوهمون انهم يرونها فعلا . وعبر المخدرات (طوروا) استحضار الارواح من الطريقة الكلاسيكية (الروح لا تظهر وانما

Akhawia.net